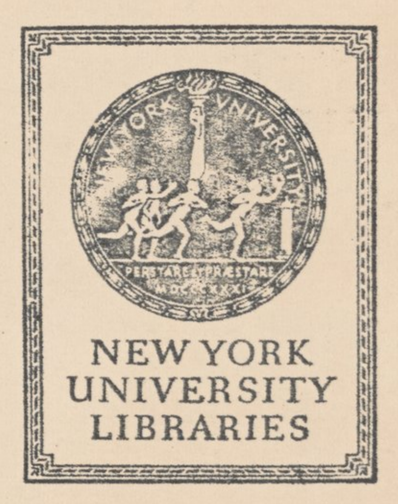
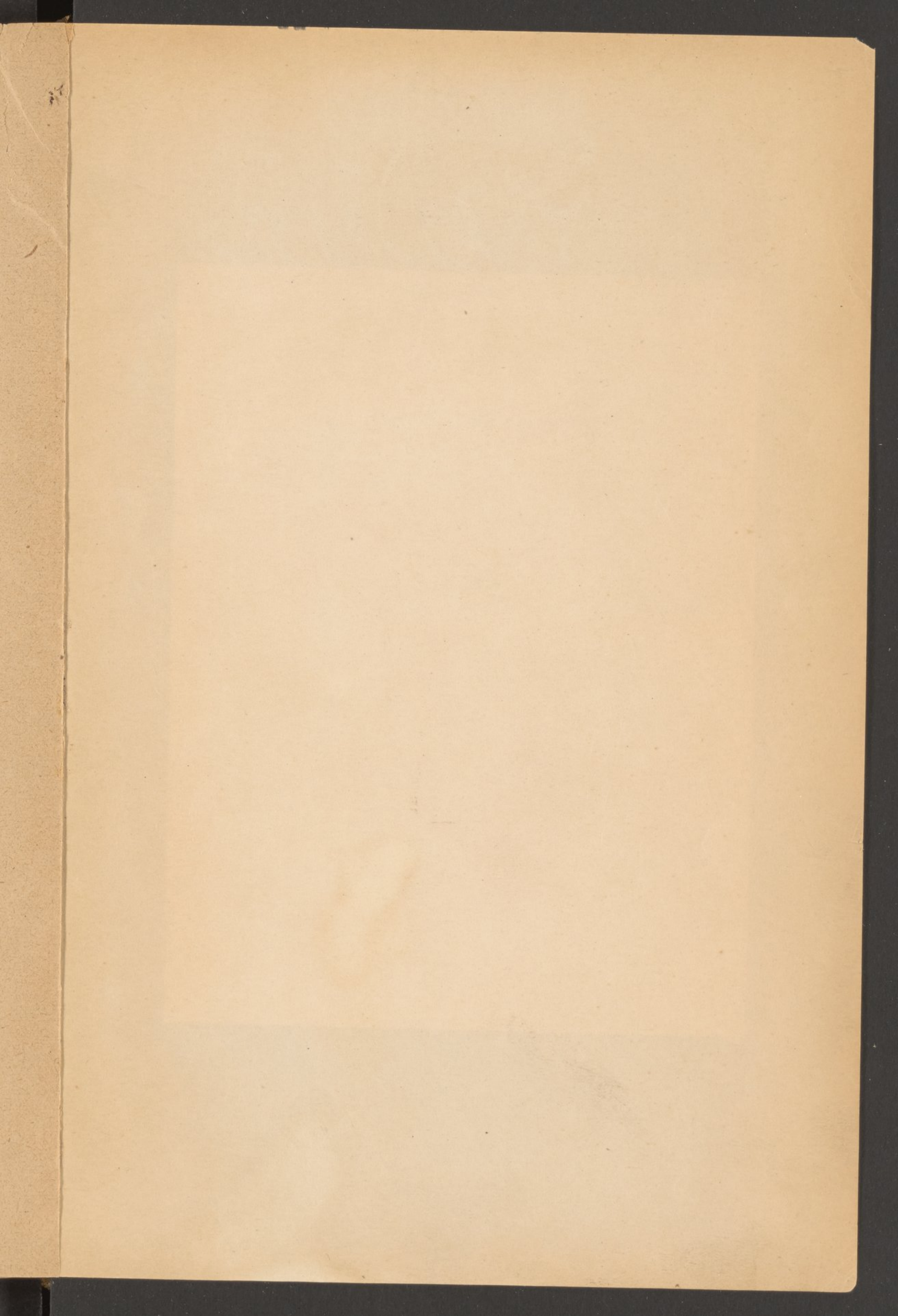



3 1142 00101 5679


NEW YORK UNIVERSITY
PERSTARE ET PRAESTARE
MDCCCXXXI
NEW YORK
UNIVERSITY
LIBRARIES

DATE DUE



الثورة الوهابية

بقلم

عبد الله علي القصيمي

« إن العقيدة الخالصة والفطرة السليمة
لاتزال الآن فى الحجاز وفى هضبات نجد »
(الاستاذ الزيات)

الطبعة الأولى

سنة ١٣٥٤ هـ سنة ١٩٣٦ م

المطبعة الرحمانية بمصر
شارع الخرنفش رقم ٣٥ تليفون ٥١٥٢٢
سجل تجارى ١٣٠١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

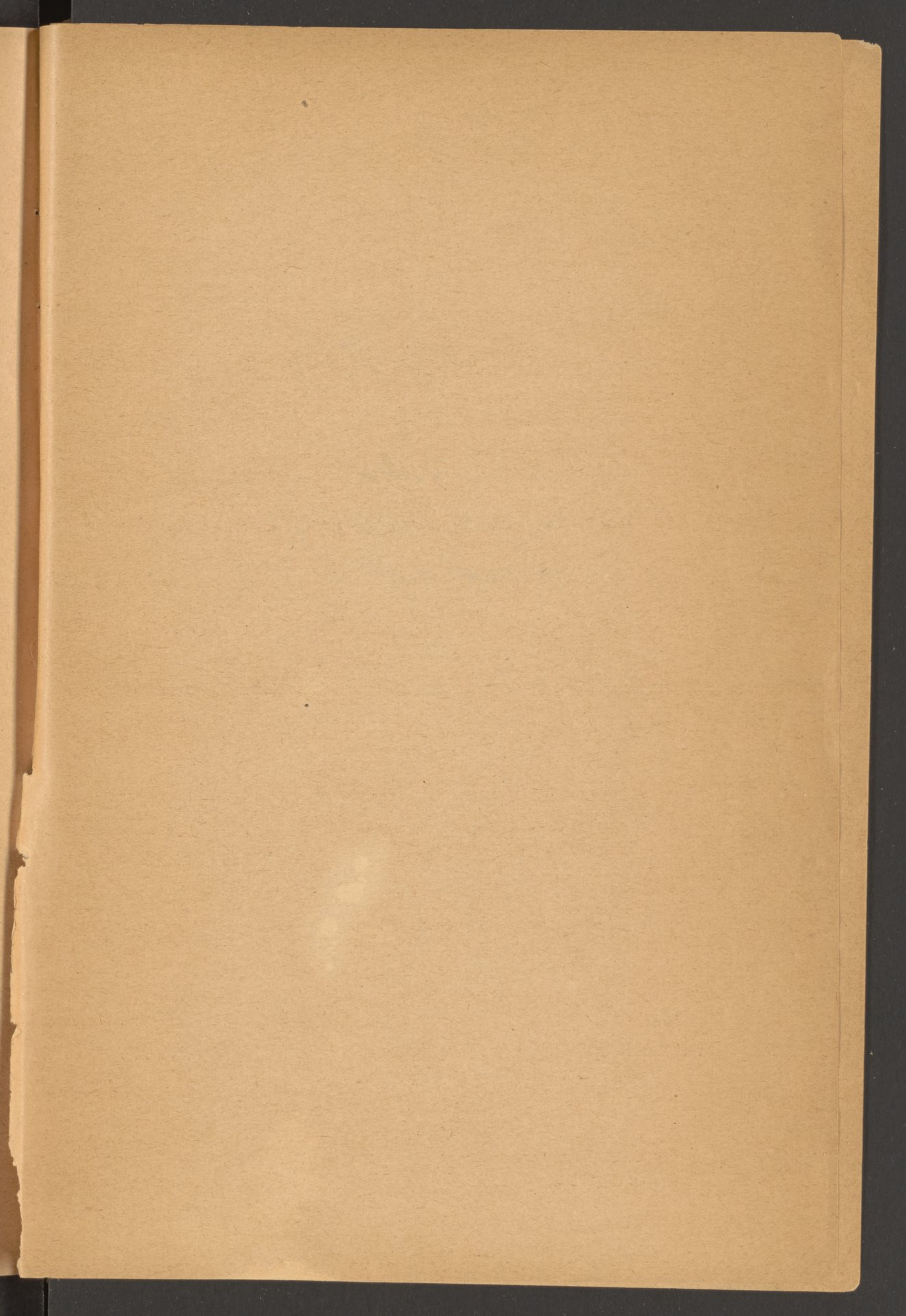
والصلاة والسلام على الأنبياء والمرسلين

وعلى سيدنا محمد سيد الجميع

الاهداء

إلى كل ثائر على الظلم والجهل والفجور

المؤلف



أروع ثورة

في مصر ثورة، وفي سوريا ثورة، وفي فلسطين ثورة، وفي بلاد المغرب ثورات، وفي الهند ثورات، وفي كل بلد، بل في كل صدر، بل في كل مظهر من مظاهر هذا الشرق ثورة عنيفة منذرة بالعواقب الوخيمة: في هذه الأقطار كلها ثورات، ولكن منها المقنع المكظوم بالضغط وبالقمع الوجيع. وهذا يوشك أن ينفجر انفجاراً هائلا مكتسحاً مدمراً. ومنها المنفجر فعلا ولكن بقدر ضئيل، بقدر يكفي أن يكون نذير أمور عظام تتمخض عنها الأيام في القريب الآزف.

وهذه الحركة ثورة أيضاً، ولكن على الجهل والخرافات، وعلى الجمود والظلم والظالمين. ثورة كهذه الثورات، ولكنها ثورة مثمرة ناجحة بالغة الغرض الأقصى، ولكنها أيضاً أشمل من هذه الثورات كلها وأعم منها كلها. فهي ثورة إنسانية روحية قبل أن تكون وطنية جنسية. هي ثورة شعارها تحرير العقل والدين من الخرافات والجهالات، وتحرير الإنسانية أينما كانت من أغلال الظلم والاستبداد والاستعباد، وتحرير البلاد من أسباب القلاقل والاضطراب والزلازل، ثم إعتاق الأنفس من الذل والخنوع للبشر والحكام الجبارين المعتدين، ووضع البشر كلهم ملوكا وسوقة، أغنياء وفقراء، في درجة واحدة، لا يستعبد أحد أحداً، ولا يذل أحد لأحد

فى هذه الأقطار الشقيقة كلها ثورات شعارها كلها واحد ، هو إخراج العدو المغتصب واستقلال الوطن استقلالا خالصاً تاماً . أما هذه الثورة التى سنحدث القارىء عنها فاستقلال الوطن وجلاء العدو المغتصب بعض مطالبها وبعض شعارها وما ترمى إليه

إن الثورة بل وكل عمل فى هذه الدنيا لا يستطيع الظفر والفوز والنجاح المطرد إلا إذا أسس على أساس متين قوى باهر . ونجاح العمل ، ومنه الثورات ، يكون ولا بد على قدر قوة أساسه وما ارتكز عليه من قواعد ثابتة محترمة . والثورة ، ولا شك ، أسلوب قوى من أساليب الحصول على ما يرمى إليه من عز وغلب وعظمة . ولكنها لن تكون مثمرة ناجحة بالغة هدفها الأقصى بل ولا الأدنى إلا إذا وضعت على أساس تتحطم على جنباته الآلام والكوارث ، وتندق فوق صخرته أعناق الجبارين المفسدين وهو ثابت ثبوت الفؤاد فى الصدر

لا يكفى لنجاح الثورة أن تكون شجاعة مضحية بالنفس والنفيس ، هجامة على قلب العدو وقواعد الظالمين ، ولا يكفى أن تكون متعاونة متعاضدة مثابرة على العمل والمقاومة : هذه الأمور وأضعاف أضعافها من مظاهر الثورات لا يكفى لتتويج الثورة بتاج الفخار والفوز . ولكن قبل هذه الأمور لا بد أن يكون هنالك معنى مقدس عظيم تحترمه النفوس الثائرة وتدافع عنه بالحياة وبما هو أغلى من الحياة ، ولا بد من معنى تفنى فيه النفس وتنصهر فيه شهواتها وحيوانيتها وأنانيتها وكل ما يقوم عائقاً عن الظفر والتفوق بالظفر

الحياة غالية جداً، جبلت النفوس كلها على الضن بها وبذل كل شيء دونها . فالنفوس لا تجود بحياتها الغالية، بل حياتها التي لا تملك غيرها ، إلا إذا ما عرفت أنها إذا ما بذلتها عوضت ما هو أغلى منها وأنفس . وأي شيء هو أغلى وأنفس من الحياة لدى الكائن الحي ؟! آلوطن ؟! وأي شيء هو الوطن ؟! لا ريب أن الانسان لا يجود بحياته لوجه الوطن مجرداً من كل معنى يأخذه ثمن حياته وعوض ما بذل . . وإلا فالجماهير لا يجودون بأنفسهم لأجل أن يأخذوا أزمة الحكم من يد إنسان ليضعوها في يد إنسان آخر ، أن كان أحدهما مولوداً في وطنهم والآخر مولوداً في وطن آخر . أجل . قد يجود المرء بحياته في سبيل الوطن، لكن على معنى آخر وقصد آخر : يجود بها في سبيل الوطن إذا ما شعر من أعماق نفسه بأن الغريب لا يريد غير إذلاله وانتزاع حياته من بدنه

على كل حال لابد لمن ثار ، منادياً بالوطن وحرية الوطن ، من معنى روحي ينصبه أمام عينيه يدافع عنه ويرتكز عليه دفاعه ويبيع نفسه وروحه في سبيله ، ولا بد أن يجتمع الثائرون على احترام هذا المعنى وتقديسه تقديساً يلاقون دونه الأذى وما فوق الأذى بالرضا والطمأنينة . فإذا ما كان المعنى الذي يرتكز عليه الدفاع عن الوطن مثلا هو الدين وحرارة الدين ، وكان الثائرون يؤمنون إيماناً لا ريب فيه بأن الدفاع عن الوطن والثورة التي يقومون بها من أجله هما من أغراض الدين وفروضه ، كانت الثورة ، ولا شك ، مثمرة ناجحة ، وكان

الثائرون ، ولا شك أيضاً ، ناجحين بالغين غرضهم الأقصى بسهولة أو بصعوبة ، عن قريب أو بعيد . فإن من يدافع عن الوطن مؤمناً من أعماق نفسه بأن دفاعه عنه من أغراض الدين ومما يجازى عليه الخلود الأبدى فى عالم النعيم الخالد ، إذا ما أتيح له أن يلاقى أجله فى الميدان ، كان هذا الإيمان مما يخفف الموت وما هو فوق الموت عليه ، لأنه يعلم حينئذ أن الموت عبارة عن رحلة من دار الشقاء إلى دار النعيم ، فهو لاق هنالك جزاءه الأوفى وعوض روحه التى فقدها ، فليست حياته ذاهبة هدراً لأجل مصلحة من يحوزون ثمرات جهاده بعده من الأحياء ممن لعلهم لم يلقوا فى سبيل جنى تلك الثمرات أذى ولا نصباً . لاريب أن الشعور بهذا المعنى يحمل الجندى على الضن بروحه وبذلها ، ولا ريب أن الكثيرين يشعرون بهذا المعنى شعوراً يملك عليهم عواطفهم وأفئدتهم ويعطونه من الاعتبار والتقدير مايستحق وما لايستحق . وأنت ، إذا أرهفت أذنيك ، سامع ترجمة هذا الشعور من أفواه لاتحصى فى إبان الثورات والاضطرابات التى تتطلب التضحية والجود بالأرواح

وكذلك ، إذا ماكان الدفاع عن الوطن مرتكزاً على الجهاد فى سبيل نصرة معنى أدبى روحى ، لاتطيب الحياة للنفس إلا إذا كان ذلك المعنى هو القائم المحكم فى العادات والافعال ، فى الصغير منها والكبير . فقد تنجح الثورة ، وقد يغلو الثائرون فى التضحية وفى الجهاد والنضال وغير ذلك من أشراط وشروط النجاح فى العمل والجهاد والثورة . فإذا ما آمن امرؤ بأن فساد الأخلاق وفشو الجور والفساد أمور

لا يستطيع بقاءها ولا رؤيتها ، وأحس إحساساً صادقاً أن بقاء هذه الأمور منغص عليه حياته ، ثم أحس أن ارتشاف الموت جرعاً حامية أبرد على كبده من أن يشاهد الأخلاق الفضلى والمعانى الانسانية تهدم وتمتهن : إن المرء الذى تتمثل هذه المعانى السامية فى جنبات نفسه يستطيع أن ينجح فى عمله وأن يبذل التضحية التى تحقق مايسمو إليه من إصلاح وتقويم وعزة

على كل حال لابد لنجاح الثورة وغيرها من أمر معنوى روحى تمتلىء نفوس الثائرين به وبحبه وبالدفاع عنه ، ويجتمعون على تقديس هذا الأمر الروحى المعنوى ، ثم يرونه جديراً بأن يكون ثمناً لاغبن فيه لأرواحهم ، وثمناً غالياً يطلبونه فوق الأشلاء والدماء ، ويستلونه من بين أنياب الليوث الضراغم . أما أن نصرخ بالثورة وبالوطن والاستقلال التام فى الطرقات والأندية ، ونرسل الصيحات التى تملأ منافذ الفضاء : أما أن نفعل ذلك ، ونحن لا نعرف معنى روحياً لا دينياً ولا خلقياً ولا أدبياً نستقبله فى جهادنا ونركز عليه كفاحنا ، فشىء مخالف لنواميس الاجتماع ، مخالف لسنة الله التى لا تبدل . ونحن نخشى ألا نجنى من عملنا بهذه الصورة سوى الخسائر والتضحيات التى نتكبدها وحدنا دون خصومنا ومن نصوب الثورة إلى صدورهم وأفئدتهم . نجرى فى الطرقات صائحين بالثورة والاستقلال وجلاء العدو جلاء تاماً ، ونحن لا نعنى بالدين ولا بالخلق ولا بالأدب ولا بمعنى روحى سام ، بل ونحن

خلو من الفضائل ومن الاستقامة التى هى منشأ القوة المعنوية التى لابد منها لمن يجاهد وهو أعزل من الحديد والنار . نفعل ذلك ثم نذهب نقترح على الأقدار ، ونذهب نملأ أفواهنا بكلمات التفاؤل ، وقلوبنا بالآمال . ثم نخدع بنيل شىء لاقيمة له مما نطلب ، وما هو فى التحقيق سوى ملهاة نشغل بها عن الهدف الذى نسعى إليه ، ونلهو بها إلى أن تخمد وتبدد الرياح تلك الصيحات العالية والصرخات الداوية . فإذا ماسئمنا هذه الملهاة وطرحناها ورجعنا ننادى ونصيح بالاستقلال وبالجلاء وبالحرية من جديد رُمِىَ أمامنا ملهاة جديدة هى كالأولى من حيث النتيجة والغاية وإن خالفتها فى الظاهر والصورة ، فتطفأ جذوتنا ونذهب نعلق عليها بعيد الآمال والفأل ، وهكذا دواليك إلى غير نهاية ، فلا نحن مستريحون من ندائنا وصراخنا ولا نحن بالغون أملنا ولا بعض أملنا ، وهكذا كل عمل لا يكون مؤسساً على قواعد من المنطق الفعلى الصحيح مآله على رغم أنف التفاؤل والآمال ، إلى الخيبة والفشل الذريع

كنت أسير فى الأيام التى اعصوصبت فيها الثورة بالقاهرة ، وقتل من قتل من الشباب الغض : كنت أسير فى الطرقات فاذا مارأيت وجهاً مسروراً أو ثغراً باسماً أو إنساناً لاهياً ناعماً حز الألم فى فؤادى وأحسست هماً تضيق به جوانب صدرى ، وقلت وا أسفاه ! ! هذا مسرور مغتبط وإخوانه وبنو وطنه يقتلون ويسجنون ويطاردون ويلاقون ألوان الهوان والعسف . هذا مسرور مغتبط هادىء البال ووطنه ثائر كله هائج كله على ذلك العدوان الجرىء الأثيم ، والغدر

الشنيع اللئيم . أما يحس هـذا المسرور المغتبط ما يحس بنو وطنه وبنو دينه وبنو سمائه ومائه وهوائه ؟ ! أليست هنالك رابطة روحية تربط ما بين أنفس بني الوطن الواحد والسماء الواحدة والأرض الواحدة ؟ ! ألا ترى طول تجرع الذل والخسف انتزع من النفوس الإحساس والشعور ؟ ! وا ألماه لبني الوطن الواحد الذى لا يحس الواحد منهم ما يحسه الآخر

ليصدقنى القارىء أنى كنت إذا ما رأيت واحداً ، ولو من أعز أصدقائى، في تلك الأيام العصيبة ،مسروراً ناعم البال،أحس نفسى تنفر عنه وتحمل له البغض والعداء وكل معانى المقت ، وأنى إذا ما رأيت مهموماً سدماً ، على وجهه آثار الاهتمام والجد والانزعاج أحس فى نفسى ميلا إليه واحتراماً له . وذلك لأنى أراه مهتما بوطنه وبنى وطنه، غزير الإحساس والشعور والعاطفة . ولا أؤول همه وسدمه إلا هذا التأويل

قلت إن هذه الثورة نجحت وأثمرت ثمراً ظل يتزايد إلى يومنا هذا ، وقلت إنها كانت ثورة إنسانية عامة ، ثورة دينية روحية خلقية ، وإنها لم تـكن ثورة جنسية فحسب ، ولم يكن شعارها الاستقلال التام أو إجلاء العدو المغتصب البغيض . لم يكن هذا شعارها فقط ، ولـكن كان شعارها تحرير العقول والأديان من الخرافات والتدجيل ، وتحرير البشر من عبودية الأقوياء الظالمين المستبدين ، ثم وضع الناس كلهم فى موضع واحد ومستوى واحد من حيث الحقوق القانونية والأدبية ، ومن حيث الواجبات الإنسانية . إنها

نجحت ، ولم يكن نجاحها عفواً ولا صدفة ، بل كان نجاحاً آتياً طبق ناموس الأحداث والوقائع فى الوسائل والغايات والأسباب والنتائج .
فقد كانت الثورة مؤسسة على أساس قوى لايستطيع شيء زحزحته ولا زلزلته : كانت مؤسسة على الدعوة إلى دين الله الحق ، بعد أن عفا عليه الجهل والهوى والشهوات ، وعلى الدعوة إلى الأخلاق الفضلى ومحاربة الرذيلة وكل ما يمت إلى الفسوق بسبب أو أسباب ، وعلى الدعوة إلى القضاء على الظلم والاستبداد ، والدعوة إلى المساواة بين الناس فى الحقوق المدنية والأدبية ، وإرغام المتكبرين على النزول من سموات كبريائهم إلى أرض المساواة والعدالة : كانت الدعوة مؤسسة على أسمى المعانى الانسانية الخلقية المنتزعة من رسالة جبريل سيد الملائكة إلى محمد سيد البشر ، فما عرضت على أولئك القوم سليمي الفطر حتى تدافعوا عليها وفنوا فيها ووجدوا كل شيء ما خلاها باطلاً ، وأحسوا من أعماق زوايا أنفسهم ألا لذة فى هذه الدنيا إلا أن تكون هذه الدعوة هى الظاهرة فى الأرض. فهبوا لنصرتها ، وأرواحهم بعض ما يجودون به فى سبيل نشرها وإعلائها ، فاخترعوا إنسانية جديدة مؤلفة من طهارة الملائكة وشرف الإنسان البار ، فكانوا يصورون هذا المعنى الجليل فى أذهانهم حين انصبابهم على الشر والظلم : «الجنة أمامكم والنار وراءكم» فعرضوا على الناس طهارة الملائكة وشرف الانسان البار معرضاً استطاع أن يغلب على الناس عقولهم وعواطفهم ، واستطاعت أنفسهم أن تملى عليهم ما أملاه القرآن الكريم على جبريل ثم على محمد ثم الصحابة

ورجال الإسلام الأولين . فاستطاعوا هم أن يتغلبوا بناحيتهم الملائكية [1] على معانى الناس الشيطانية ، وأن يتغلبوا بإنسانيتهم على ما فى تكوينهم الفطرى من حيوانية وأنانية . فاستطاعت طهارة الملائكة وشرف الإنسان البار أن يضربا كل ماوقف فى سبيل الخير والفضيلة ضربة كانت هى القاضية الفاصلة

أما لو كانت الثورة التى سنحدثك عنها كهذه الثورات ، ليست لها مبادىء أدبية معنوية ، بل ثورة تصيح بألفاظ مبهمة مجملة فى آذان ليس فى قلوبها معنى من معانى الدين والأدب القوى الحر ، فلن يكتب لها ما كتب من الفوز والنجاح ، ولما عدت أن تكون زوبعة من الزوابع التى تكدر الجو الحين بعد الأحيان ثم تمضى فى سبيل الفناء والاندحار كأن لم تكن وكأن لم يكن شىء

إذن على هؤلاء الذين يثورون فى وجه الظلم والظالمين ويطلبون الحرية والاستقلال الواضح وجلاء العدو الداجن الثقيل ، أن يذكروا قبل كل شىء أنه واجب عليهم أن يثوروا على ما فى أنفسهم من ظلم ونقص وضعف وعبودية للشهوات المادية الحيوانية قبل أن يثوروا على أعدائهم الظالمين المعتدين وعلى ما فى أعدائهم من هذه المعانى الممقوتة

امرؤ ينهض مناديا للحرية المطلقة التامة ، وهو منغمس من قدميه إلى أذنيه فى عبادة شهوة نفسه وعبادة نصفه الحيوانى ، فكيف يفلح ؟ !

---

1) نسبنا إلى ملائكة . والصرفيون يقولون إن الصواب النسبة إلى المفرد ، ولكن الغلط هنا هو الصواب

أم كيف يستطيع العبد ، ولو عبد نفسه ، إحراز الحرية وكيف يفهمها حق الفهم ويقدرها حق التقدير ؟!

وامرؤ آخر يهب لمقاومة العدو المسلح المستبد ، وهو أعزل من السلاح ، وأعزل من الدين الذى تستمد منه القوة ، ومن الخلق الذى يستلهم المثابرة والجلد على الضراء . فكيف يدرك مثل هذا مطلوباً ، أم كيف ينال ساعة من ساعات الظفر والانتقام ؟!.

إن الذين يفكرون فيما يأتون وما يذرون ، والذين يعرفون أن الفعل كالقول منه منطق ومنه سفسطى وهمى ، يشعرون بأن الأعمال الجسيمة ، كالثورة مثلا ، لا يمكن أن يقدر لها النجاح إلا إذا ما ارتكزت على قواعد أدبية إنسانية من دينية وخلقية . وأن الذين يحاولون رجع الناس إلى الجادة الواضحة المستقيمة ، وأنفسهم فى حاجة إلى هذه المحاولة وإلى هذه الاستقامة ، غالطون غلطاً فعلياً . وشر الغلط هو الغلط الفعلى

قام فى العالم كله تقريباً ثورات نجحت أو كادت ، نقلت أوضاع الحكم والسلطة من يد إلى يد أخرى ومن وضع إلى وضع آخر ، من ملكية إلى جمهورية ومن جمهورية إلى ملكية ، ومن ملكية إلى دكتاتورية الخ . ولكن هذه الثورات كلها لم تكن منها واحدة مثل هذه الثورة التى سنكتب عنها لا فى الوسيلة ولا فى الغاية ولا فى الثمرة . فإن هذه الثورات كلها قائمة على الظلم والفساد والتمرد وعلى الفوضى الثائرة ، لم تكن ثورة واحدة منها قائمة لأجل الفضيلة أو الأدب الحر أو المعانى الانسانية السامية ، ولم يكن أحد من القائمين بهذه الثورات

يريد بها العدل والإصلاح وهداية الضالين إلى سبيل الصواب ، أو يريد بها تخفيف ويلات الانسانية ، ولم يكن كذلك أحد منهم ألهب نار الثورة نصرة لضعيف أضيع حقه أو لحق طورد وعذب أو لأدب حر امتهن ، بل كان غرض هذه الثورات أجمع فى أنفس موقديها ينحصر فى مصلحة شخصية خاصة لا تتجاوز نفس صاحبها وابن بجدتها . زعيم ينقم من زعيم آخر أو يحسده على سلطة نالتها يده ، فينهض مشعلا جحيم الثورة على نده وخصمه حسداً وبغياً ، أو صعاليك تهبط على أنفسهم معانى التمرد والعصيان والتوحش فيفزعون إلى الثورة فيكسون الأرض دماء وأشلاء ، لا لمعنى يزيد عن أن واحداً أو أكثر غضب لنفسه لمنفعة خاصة فى الغالب مادية اقتصادية . وليس فى هذه الثورات ثورة واحدة اندلعت وكان المقيم لها شيئاً إنسانياً كغضب لفضيلة أو عزة أو دين أو شىء آخر من معانى الانسان الكامل

هذه مثلا ثورة فرنسا الشهيرة التى كان شعارها الحرية والإخاء والمساواة ، والتى قام لها العالم وقعد ، والتى يقدس الناس فرنسا من أجلها إلى اليوم ويسمونها أم الحرية ونصيرة الضعفاء والعدالة والمساواة . هذه الثورة الإفرنسية التى يراها الغالون اللبنة الأولى فى أساس الديمقراطية المشهودة اليوم فى الأرض كانت قائمة ، ولا محاباة ، على الظلم والتوحش والفتك بالأبرياء وقتل الأطفال الذين لم يكن لهم من الذنوب سوى أن كانوا يمتون إلى نبيل من النبلاء بصلة نسب أو قرابة . كان يقتل يومياً فى باريس بسكين المقصلة عشرات الألوف أشنع

القتلات بأيدى الثوار المنادين بالحرية والمساواة والإخاء، وكان أولئك الثوار، نصراء الحرية والإخاء والمساواة، يلهون بمشاهدة الرؤوس تطاح من فوق الأعناق فى ميادين باريس وطرقاتها صبراً، وكانوا يجدون فى ذلك فرجة وملهاة وسلوة، وكانوا يقهقهون ويغردون عند رؤية هذه المناظر الدامية المزعجة. كانت ثورة هوجاء، ثورة دامية وحشية همجية ليس فيها معنى من معانى الإنسانية. استمرت هذه الثورة مدة طويلة تجز تحت سكين المقصلة فى اليوم الواحد عشرات الألوف من أشراف فرنسا المعرقة فى الحضارة والنضوج الإنسانى، وكان سبب هذه الثورة المدمرة هو فى الواقع انتقاماً بحتاً من الاشراف والنبلاء، لم يكن السبب غرضاً إنسانياً البتة، ولم يكن الحامل عليها الفضيلة أو الإخاء أو الحرية والمساواة كما يدعون، ولكنه الحقد بعينه. ثم ماذا كانت نتيجة هذه الثورة المزعومة ثورة الإخاء والمساواة والحرية ؟! وماذا أسدت إلى الانسانية المسكينة من إخاء وحرية ومساواة؟! وماذا جنى طلاب الحرية والمساواة والاخاء من وراء فرنسا الثائرة ؟! إن سوريا ومراكش والجزائر وغير هذه البلاد مغتصبات فرنسا تعرف جواب هذه الأسئلة!! وإن الدماء التى تسيلها صديقة الإخاء والمساواة والحرية، تجاوب عن هذه الأسئلة بأن هذا كله زور فى زور، وفجور فى فجور، وصفاقة فى صفاقة!!

هذه فرنسا الثائرة للإخاء والحرية والمساواة هى اليوم، بعد أن نالت هذه الأقانيم الثلاثة، تحارب الحرية والإخاء والمساواة، وتقط

رؤوساً تنادى بالحرية والإخاء والمساواة التى كانت شعار ثورة فرنسا ، والتى استباحت لأجلها سفك الدماء وتمزيق الأشلاء

إن أولئك الأشراف من فرنسا ، الذين ثارت عليهم فرنسا وجزت رؤوسهم تحت المقصلة ، ما كانوا يصبون على الشعب الفرنسى الثائر من الظلم والاستعباد والاستبداد بعض ما تصبه اليوم فرنسا على سوريا وسائر مستعمراتها من بلاء وويلات . فرنسا تجازى الشعب العربى المسلم هذا الجزاء الهمجى جزاء نصرة العرب لها على الأتراك والألمان ، تلك النصرة التى مكنت فرنسا من امتلاك رقبة سوريا وغير سوريا . وما كان هؤلاء العرب الثائرون على فرنسا يطلبون منها اليوم جزءاً ضئيلا مما كان يطلبه الشعب الفرنسى الثائر على النبلاء والأشراف . ومع هذا لا يلاقى الشعب السورى غير لعنات فرنسا ومدافعها ودباباتها . إنه لا إخاء ولا حرية ولا مساواة ولا شىء غير التدجيل السياسى والخرافات السياسية

هذا كله صحيح لا مراء فيه ولا يمكن أن تعمل فرنسا ولا غيرها من دول الاستعمار غير ما تعمله اليوم . ومن رجا منها غير ذلك فهو شقى الرجاء ضعيف الادراك ، وهذا هو شأن من لا يؤمنون إلا بالأمور المادية العجماوية ، ومن لا يرفعون بالمعانى الروحية رأساً . إن من يقول لفرنسا أو غيرها من دول الاستعمار : اعدلى أو أنصفى منك غيرك كمن يقول للحنظل أثمر موزاً أو تفاحاً . ولن يثمر الحنظل موزاً أو تفاحاً حتى تعدل فرنسا فى حكمها — إلا أن تؤمن بالأمور الروحية ،

وإلا أن يكون فى كف المطالب القائل سيف أو مدفع

إن هذه الدول لا تغزو إلا لابتزاز أموال الشعوب الضعيفة بشتى الطرق ، ولتقليم أظافرها خيفة أن تطلب منها حقها يوماً وفى يدها الحسام ، فهى إذن لن تدع الظلم والاستعباد حتى تدع طبيعتها . وليس هنالك شىء يحملها على أن تدع طبيعتها سوى قرع النبع بالنبع ، وفل الحديد بالحديد

أما هذه الثورة فقد كانت لتحقيق معانى الإنسانية ، ولتحقيق الأمثال العليا الخلقية . فالظلم أول ما كانت تحارب ، والاستبداد هو عدوها الأكبر الذى تقاوم . والغربيون يقولون إن الشجرة تعرف بثمرها ، والعرب يقولون الشىء يعرف بأثره . فلينظر المرء إذن إلى أثر هذه الثورة أو هذه الدعوة . لينظر إلى الحكومة الحجازية النجدية المتمسكة بهذه الدعوة ، السائرة على ماوضعته من آساس ونظم ، ثم ليعرج بنظره على هذه الدول الغربية فرنسا أو غيرها من دول الغرب ، دول الحرية والديمقراطية كما يدعى المفتونون ، وكما يقول الجاهلون ، أطفال العقول ، من تغرهم المظاهر ، ومن تخدعهم الشقاشق ، ومن لا ينفذون إلى الصميم

ويكفى أن نشير الى موقف جلالة الملك عبد العزيز من اليمن بعد أن انتصر عليه ، ثم نشير الى موقف فرنسا وانجلترا من العرب بعد أن حاربوا فى صفهما ونصروهما على تركيا الدولة المسلمة . فلا مشاحة إذن أن هذه الثورة هى أروع ثورة بعد ثورة الاسلام الكبرى

بسم الله الرحمن الرحيم

حادث الدعوة النجدية السلفية التى اصطلح الناس على أن يسموها وأن يعرفوها بالدعوة الوهابية من الأحداث الكبريات التى اهتز لها التاريخ فى الشرق الأدنى والأوسط ، وقلبت أوضاع الحكم فى الجزيرة كلها وزلزلت الدول التى تصاقب الجزيرة زلزلة أزعجت رجال حكوماتها ولفتتهم إليها بعنف وروعة لفتة الذعر والاكبار والإعجاب ، واضطرت الناس فى المشرق والمغرب ، من لهم مصالح فى الجزيرة ومن لا مصالح لهم فيها ، أن يتجهوا إليها ، وأن يتنطَّسُوا تقلباتها وحركاتها ، ويتتبعوا ما يقع فيها من أحداث وشئون بعين العناية والاهتمام ، وأن يتنبئوا لها مختلف النُّبُوءات ويكتبوا عنها مختلف الكتب والمقالات ، وأن يشغلوا بدرسها من جميع نواحيها دينية وسياسية وأن يتقرب ذوو المصالح إلى زعامتها رغبة أو رهبة

ولدت هذه الحركة الدينية السياسية فى منتصف القرن الثانى عشر الهجرى ، أى منذ قرنين على وجه التقريب فى شخص الشيخ محمد بن عبد الوهاب المشهور وهو شيخ من شيوخ نجد ، وقام بنصرته وتأييده والدفاع عنه الأمير « محمد سعود » جد العائلة السعودية الأول . وكان العرب فى ذلك العصر الذى ولدت فيه هذه الحركة فى حالة من التأخر والبؤس والجهل والضعف ليس وراءها مزيد لمستزيد ، متفرقين

متحاربين جاهلين مغلوبين، رجعوا إلى حالة من الفوضى والجهل والفقر، إن لم تكن شراً من الجاهلية الأولى قبل بعثة الرسول وإنقاذهم، فليست دونها، وقد استطابوا هم تلك الحالة المزرية وقنعوا بها واستمرؤا ما يجدونه فيها من الفوضى والهمجية، ولعلهم أصبحوا لا يدرون أن هنالك ما هو خير مما هم فيه، ومن أين يدرون وأسباب العلم والدراية قد تقطعت بهم ؟! وقل فى سائر الأمم الإسلامية ما قلته فى العرب

فأنعشتهم هذه الدعوة وهذبتهم وابتعثتهم وجمعتهم عليها حينا ووضعت أمام أعينهم من مثل الإصلاح والتهذيب والدين والأخلاق والتعاون ما جعلهم يرغبون فيها الرغبة القوية وما جعلهم يترامون فى حجرها ويستميتون فى الدفاع عنها، وقد صاروا يرون فيها المخلص الأكبر لهم من ذل الحياة الدنيا ومن عذاب الأخرى. فمثلوا أدواراً من البطولة العربية الإسلامية فى ميدان الجهاد والدفاع كانت حديث الناس إلى عصرنا هذا .. . وأروا الناس من أمثال التقوى والاندفاع وراء الدين والفضيلة ما كانوا يقرؤنه فى تاريخ المجاهدين الأولين من المسلمين

ولقد تناولت أقلام عربية، وأخرى أفرنكية، هذه الدعوة، وما زالت تتناولها، وحاولت بإخلاص وإعجاب أن تصفها وصفاً يكون الحقيقة. وفى دور الكتب الأوروبية العامة المؤلفات العديدة عنها، منها عربية ومنها أفرنكية. ومع هذه المؤلفات وهذا الانتشار والشهرة نقول إن أغلب المسلمين يجهلون حقيقة هذه الدعوة وتخفى عليهم

مراميها، وعلى الخاصة منهم أيضاً. ولعل كثيرين من باحثى الغرب يعرفون عنها ما لا يعرفه المسلمون فى العالمين: العربى وغير العربى

والحقيقة المؤلمة أن قوماً يكتبون عنها ويحسنون الظنّ بها ويريدون نصرتها وهم لا يعرفونها معرفة تامة، فيجىء ما كتبوا خليطاً مشوهاً. وأصحاب الدعوة أنفسهم يقصرون كثيراً فى إبلاغها وتعريفها إلى الناس، وإذا ما كتبوا كتبوا بأساليب عصور ولت وحلت مكانها أساليب جديدة لا بد منها فى عصرنا هذا. فالدعوة إذن فى حاجة ملحة إلى درسها وبيانها للناس بياناً صحيحاً بعبارات يقرؤنها ويفهمونها.

ولقد كتبت محاضرة عن الدعوة وعن سير انتشارها ألقيت فى أحد النوادى بالقاهرة، فاستحسن الإخوان الذين سمعوها بيان الدعوة بأسلوب المحاضرة، وذكروا أن الدعوة فى حاجة إلى مثل المحاضرة وأن الناس فى حاجة كذلك. كما ذكروا أن الدعوة إذا ما وصفت كما وصفتها المحاضرة أصبح من المرجو جداً أن يقبل المسلمون عليها إقبالاً عظيماً وأن يستفيدوا منها وألا يكون ثمت مايحول بينهم وبينها

وهذا الذى ذكروه حق لامراء فيه، فإن هذه الدعوة ليست سوى صورة قوية واضحة من صور الإسلام البرىء دين الفطرة كما وصفه القرآن وعرفه المسلمون قبل أن تجترفه الأغراض وقبل أن تعبث به يد الفساد والدسائس الممقوتة. فالناس الذين لا يقبلون هذه الدعوة ولا ينعمون بها أحد رجلين: إما صاحب مصلحة دنيوية

لايريد أن تفوته باتباع هذه الدعوة التى تأبى بصرامة الدجل والاحتيال على أموال الناس على حساب الابتداع والدعاوى الكاذبة. وإما جاهل بالدعوة وبأمرها لم يوفق إلى من يصفها له وصفاً لا يعدو الحقيقة بعبارة واضحة قوية. ويأتى بعد هذين السببين سبب ثالث قوى، وقد يتناوله السبب الأول. ذلك السبب القوى هو السياسة المغرضة التى لاتعرف حقاً ولا حرجاً فى سبيل مصلحتها الذاتية. وهذا السبب الأخير له الأثر البارز فى محاربة هذه الدعوة كما سوف تعرف ذلك بعد.

ولولا هذه الأمور الثلاثة، أو الأسباب الثلاثة، لما كان هنالك عائق من أن يجتمع المسلمون على هذه الدعوة وينضووا تحت رايتها، ولما وجدنا اليوم من يظن بها الظنون ومن يتجافى عنها

ولكن الحق، ولا محالة، غالب ولو بعد حين أو أحيان طويلة. والحقيقة وإن حبست أو طوردت أزماناً فلن تظل دائماً حبيسة طريدة، ولن تلبث أن يأتى عليها يوم تحطم فيه القيود وتتسور الجدران فلا يقف فى سبيلها شىء.

وإننى فى هذا البحث الموجز أضع أمام بصر القارىء فصولاً موجزة فى بيان الدعوة وبيان حقيقتها وسر قوتها وحقيقة ماترمى إليه فى شىء من ترجمة ناصرها الأوحد جلالة الملك «عبدالعزيز»

ولعلى أكون موفقاً فيما رمت، متحريا الحق وحده، بعيداً عن الهوى والتعصب المضيع للحقيقة.

المؤلف

تمهيد

ليس لبلاد نجد قبل النهضة السلفية التى نخصها ببحثنا هذا من تاريخ يميزها عن سائر بلاد العرب المتمكنة فى البداوة الجافة . فلم تكن فى ذلك العهد سوى جزء كبير من جزيرة العرب فيه ما فى غيره من فرقة متحكمة فى الافراد والجماعات ، ومن تقاتل لا سبب له غير الرغبة فى مافى أيدى الناس من مال وجاه ، وغير الرغبة فى رؤية الدماء القانية . وفيه مافى سائر تلك البلاد من جهالة فاشية ومن خرافات ساذجة وعقائد مضحكة مبكية ، ومن ترك لشعائر الدين الاولية بل ومن جهل بها ، ومن افتتان بالكهان والمشعوذين ، ومن غلو فى القبور واصحاب القبور . واجمالا كانت العقلية فى أغلب البلاد النجدية ، فى ذلك العهد الشبيه بعهد الفترة ، تشبه من كل وجه عقلية اولئك الاعراب الذين يعيشون اليوم ويعيشون ذلك العهد فى اطراف الحجاز واليمن والعراق وحدود سوريا. اذا لنطو صحيفتنا عن ذلك العهد بما فيه

الحادث الاكبر

فى منتصف القرن الثانى عشر الهجرى وقع فى نجد حادث لا نظير له فى تاريخها كله ، بل حادث لا نظير له ، حسبما اعلم ، فى بلاد العرب كلها ، اذا ما استثنينا حادث مولد منقذ البشرية النبى الاكبر عليه الصلاة والسلام . حادث قلب تاريخ نجد دينياً وسياسياً وادبياً واقتصادياً . ذلك الحادث هو نشأة مايسميه الناس بالمذهب الوهابى ، ومانسميه نحن

بالنهضة السلفية الحديثة فى قلب جزيرة العرب

فى سنة ١١١٥ هـ ولد لقاضى بلدة (العيينة) قرية من القرى القريبة من عاصمة نجد اليوم مولود أسماه أبوه محمداً . شغل ذلك المولود منذ صغره بتلقى الفقه والعلوم الدينية على أبيه القاضى المسمى عبد الوهاب . فأخذ من العلم ما أخذ، ثم رغب فى السفر فطاف فى بعض بلاد العرب كالحجاز والعراق والتقى بالعلماء هنالك وسمع منهم وسمعوا منه وحدثهم وحدثوه . ورأى فى البلاد التى وطئتها قدماه مثل ما رأى فى بلاده من المعتقدات الشنيعة كالعكوف على القبور والاستغاثة بالموتى. ورأى اقرار العلماء تلك المبتدعات ورضاهم عنها سواء فى ذلك بلاد الحجاز مهبط الوحى ومصدر التوحيد وغير الحجاز . ورأى ما أصاب العرب من تفرق وفوضى وقلة وذلة . فامتلأت نفسه بأن المسلمين قد اخطأوا أخطاء فظيعة و بأنهم قد غيروا الكثير من الدين ، وامتلأت نفسه بأنهم قد ادخلوا فى اصول الاسلام العليا ما يأباه القرآن وما تأباه السنة المحكمة . وكان يقوى عقيدته فى أن المسلمين قد أخطأوا ما يطالعه اليوم بعد اليوم فى أثناء دراسته السنة من الروايات القائلة بأن المسلمين لا بد أن يغيروا ، ولا بد أن يحدثوا فى الدين ما ليس منه، ولا بد ان يسلكوا مسالك الذين من قبلهم . فرجع إلى بلدته وقد صمم على امر جسيم ، على أمر فيه مجازفة بالروح . صمم على ان يعالن قومه بأنهم قد ضلوا الطريق السوى وأنهم قد زاغوا عن سبيل الصواب .

حقاً ان الموقف دقيق حرج ، يحتاج الى شجاعة ماضية والى ايمان

لا يبالى الاذى فى سبيل ارضاء الله وارضاء الحق الذى اقتنع به وسبيل انقاذ البشرية المعذبة . كما يحتاج الى عدة كافية من قوة اللسان واصابة البرهان ، ليواجه مايجابه به من شبهات واعتراضات لابد منها ، ثم يحتاج الى مؤازر قوى يحمى ظهره ويدفع عن دعوته .

وارحمتاه لذوى النفوس الكبيرة أولات الاحساس المرهف والشعور المتوقد ! ! ماذا يلاقون من الآلام وماذا يحملون من الأعباء فى هذا الكون الصاخب بالآلام المثقل بالاعباء : الناس يذنبون وهم يتجرعون مرارة الذنب ، والناس يفسدون وهم يتحملون أعباء الإصلاح لما أفسدوا ، والناس يسيئون إلى ولىّ نعمهم وإلى أنفسهم وهم وحدهم يجدون عذاب تلك الإساءة ويتذوقون عقباها المريرة . . يريدون من كل نفس فى هذا الكون المتمرد أن تكون كأنفسهم تسمو على المعايب والنقائص ، وهذا ليس فى مقدور الطبيعة . يريدون من هذا الكون كله أن يحمل ما تحمله أنفسهم من الفضائل والهدى والبصائر وإلا نصبوا ، وهذا الذى يريدون لم يكن يوما من سنة الله

وارحمتاه لذوى النفوس الكبيرة أولات الاحساس المرهف والشعور المتوقد : يتعبون أنفسهم ليريحوا غيرهم ، ويشقون أبدانهم وأرواحهم ليسعدوا أرواح الناس وأبدان الناس . كأن كبر النفس معناه كبر ألمها ونصبها . وكأن إرهاف شعورها معناه إرهاف ألمها وعذابها . وكأن سموها على النقائص معناه سمو مصائب الناس وهموم

الناس إليها . وكأن إبعادها عن المعيب معناه فيها ابعادها هي عن الراحة والهدوء والسكون .

ما أخلق ذوى النفوس الكبيرة بالرثاء والعطف ، وما أحوج أبدانهم إلى السفر عن أنفسها سويعات لتتذوق الراحة والهدوء ، وتصالح الطمأنينة والعافية

عالن الرجل قومه بذلك الامر الخطير الجسيم ، وطلب اليهم ألا يدعوا الا الله وحده وألا يخافوا الا الله وحده وألا يرغبوا الا اليه وحده . وعالنهم بأن عقيدتهم فى تلك الأشجار والأحجار ضلال وزور ، وبأن كل ما خلا الله باطل . وعالنهم بأنهم فى حالة لا ترضى فلا بد من الانفلات منها ، ودعم ما ذكر لهم بالدلائل من كتاب الله ومن سنة رسوله . ألا يدعوا إلاّ الله وألا يخافوا إلا الله . ما أجملهما من كلمتين وما أصدقهما وأنفذهما فى مسامع المؤمنين ومسارب الطبيعة !! الله الذى خلق كل شىء ويهلك كل شىء إذا شاء . ما أجدر كل شىء ألا يدعو وألا يخاف إلا إياه ! . أى عاقل يرضى لنفسه أن تدعو وأن تخاف غير الله من صغير وكبير . وكل شىء من ناطق وصامت وحى وميت ينادى ذلك الانسان الجاهل الذى أشرك مع الله غيره والذى جعل له أنداداً من الجماد والحيوان والإنسان : بأن دعوة ما خلا الله باطل وزور وبأن خوف سوى الله جبن وخيانة

ألا يدعوا إلا الله وألا يخافوا إلا الله . كلمتان صدقهما كل شىء وتواطأ عليهما كل شىء . الكائنات كلها : تشريحها وتدبيرها وطبيعتها

وكل شيء فيها يصدق هاتين الكلمتين ويعترف بهما وإن جهل ذلك الانسان أو أباه .

آمن بدعوته النزر القليل وتصايح به سائر الناس وأهل الشوكة منهم سنة الله فى الذين خلوا من قبل ، واغروا العبيد والرعاع بايذائه والجائه الى مغادرة قريته ومفارقة أهله واحبائه ، فخرج غير آسف ولجأ الى قرية أخرى يقال لها « الدرعية » وكان فى هذه القرية الأمير محمد سعود ، مؤسس المملكة السعودية الأول وجد آل سعود بناة نجد الحديثة وأصحاب تاريخها الزاهي المجيد . فلجأ الشيخ محمد بن عبد الوهاب الى بيت الأمير محمد سعود ، ودعاه الى نصرته ومؤازرته بعد أن شرح له أمر ما يدعو اليه وبعد أن بين له انه دين الله القديم الذى لا يخذل من قام به والذى لا يقبل الله ديناً سواه ، وعرفه الأخطاء التى وقع فيها قومه من حيث يشعرون ولا يشعرون ، فاستحقوا من أجلها ما أصابهم من ضعف وذلة وقلة وتحلل روابط ، وأقنعه بأنه فائز ولا بد إن آزره على تحقيق مبادئه العليا التى دعاه إليها

بعد تفكير قليل وتردد قليل شرح الله صدر الأمير لما دعاه إليه. فبايعه على النصرة والمؤازرة وعلى الدعوة الى ما دعاه اليه هذا الضيف الكريم والطارق الغريب غريب المبدإ والبلد . . واستعد المتبايعان الكريمان : صاحب الشوكة وصاحب الدعوة لمواجهة الخطوب والصعوبات التى لاعاصم منها ، فأباح صاحب الشوكة لصاحب الدعوة أن يجهر بدعوته وأن يقول مايشاء فى سبيل الله وفى سبيل انقاذ قومه ، وهو وآله ومن لا يعصون أمره من ورائه يدفعون عنه ويحولون بينه وبين

الأذى ، ويحملون من استطاعوا حمله على قبول الدعوة والايمان بها باذلين ما يملكون من جاه وشرف لذلك . فأمن جانب الشيخ وعز . فصدع بدعوته وصرح بكل ما كان يتلجلج فى صدره وما كان يجمجم به لسانه فيبديه أحياناً ويكتمه أحياناً أخرى . فأحدث فى تلك القرية المتواضعة دوياً هائلا ، وشغل بأمره وأمر دعوته القوم ، وأصبح أمر هذه الدعوة الغريبة بينهم الشغل الشاغل ، والحديث المعاد الذى لا يمل فى القرية وما حولها من القرى . فانجفل الناس سراعاً اليه والى سماع أحاديثه وآرائه التى ماسمعوا بها . منهم من يريد بذلك الفكاهة والفرجة ، ومنهم من يريد أن يسمع السوء ليذيعه ، ومنهم الشاك الحائر ، ومنهم من يريد الهداية والفائدة إن وجدها . فطفق الشيخ يعرض مبادئه على هؤلاء كلهم ، وجد فى تحسينها وترغيبهم فيها ، حتى استجاب له أكثر أهل البلدة وأحبوه كما يحبون أنفسهم وأبناءهم ، وبايعوه على المناصرة والمؤازرة ، فاشتد أمره وعظم وأصبح مسموع الكلمة فى تلك القرية ، فأمر باقامة الحدود المضاعة وأمر بطقع الأشجار التى كان يعتقد فيها الجهال والنساء الشنيع من العقائد ، وأمر بهدم القبور المشيدة الموهوبة من التعظيم والاجلال ما لا يكون إلا لله عز وجل ، والتى كان يقع حواليها مثل ما تسمعه اليوم يقال فى أضرحة الصالحين من الابتهالات والضراعات . أمر بذلك كله فنفذ . فعظم على أهل البلاد وزعماء البلاد وعلمائها الرسميين آفة كل إصلاح . ونشر هؤلاء عن الشيخ مقالة السوء ورموه بالزيغ حيناً وبالزندقة حيناً آخر ، وأغروا به الكبراء

بأنه طامع فى الرئاسة متوسل إليها بدعوته الجديدة، وقالوا فيه ما نسمعه يقال كل زمان فيمن دعا إلى إصلاح غير مألوف للدهماء والجمهور. فتألب الأقوام على الشيخ ودعوته، وعلى الأمير الذى آواه ونصره، وحاولوا القضاء عليهما مرات. ولكن الله جلت قدرته شاء لهذه الدعوة أن تنتشر وشاء لناصرها أن ينتصر. فلم يمر زمن طويل حتى عمت دعوة الشيخ وعم سلطان من آواه أغلب البلاد النجدية. وشاء أن تظل هذه الدعوة تنمو وتتسع بعد موت مؤسسيها فى كنف ذريتهما آل سعود وآل عبد الوهاب إلى أن تكونت هذه المملكة العظيمة التى نسميها اليوم المملكة العربية السعودية معقد آمال العرب والمسلمين.

اهم مادعا اليه الشيخ وما انكر عليه

أولا — منعه دعوة الأموات واستغاثتهم. فقد بدأ فيما بدأ به بأن نهى عن دعاء غير الله وشدد فى النهى وعد ذلك من الأمور الفظيعة المنافية للتوحيد المخالفة لأصول الاسلام، وأصول دعوة الأنبياء والقرآن والسنة، المذهبة للكرامة والعزة والاباء من النفوس، المولدة للجبن والخور والضعف. وعزز قوله هذا بالآيات والأحاديث النبوية كقوله تعالى (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً) وقوله (إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين) وقول الحديث « وإذا سألت فاسأل الله »،

والآيات والأحاديث التى عـددها فى هـذا الموضوع لاتحصى . فأنـكر عليه مخالفوه ذلك وعدوه من المروق ورموه ببغض الأنبياء والصالحين وإنـكار كراماتهم . ولـكنه رد عليهم بأن حب الأنبياء والأولياء شىء ودعاءهم شىء آخر . فنحن نحبهم الحب الشرعى المعقول ، حب العاقلين ، ولا نغلو فيهم غلو الجاهلين المعتدين، ورد عليهم فى ذلك ردوداً مقنعة وضعها فى كتب لم يقابلوها من جانبهم إلا بالسباب والهجاء .

ثانياً — منعه الابتداع فى الدين منعاً باتاً لا هوادة فيه ولا استثناء وأمره بالاقتصار على ماجاء عن صاحب الرسالة مستدلا بالأحاديث الصحيحة . من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام « من أحدث في أمرنا هذا ماليس منه فهو رد » وقوله « كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار » . فمنع لذلك الأدعية الفاسدة والأذكار التى لم ترد عن صاحب الشريعة ، ومنع الشطح والرقص فى الذكر ، ومنع الطرق المبتدعة وما إلى ذلك .

وجلى أن القول بالابتداع قول لاضابط له ، وهو يبيح لأصحاب الاهواء والأغراض أن يعبثوا بالدين وأن يدخلوا عليه ما يبرأ منه وما يبرأ منه الذوق والعقل بحجة أن ذلك بدعة حسنة ، كما فعل ذلك طوائف شوهت جمال الدين .

ثالثاً — إيمانه بما تواردت عليه الـكتب المقدسـة ، ولا سيما القرآن ، من أن الله سبحانه وتعالى مستو على العرش استواء يليق به

لا كما يستوى المخلوق . وذلك وارد فى آيات لاتحصر فى عبارات مختلفة ، ووارد فى السنة الصحيحة فى روايات جمعها بعض الحفاظ فجاءت كتاباً مستقلا . كما فعل الحافظ الذهبى فى كتابه « العلو » وكما فعل ابن القيم فى كتابه (اجتماع الجيوش الاسلامية)

وقد نازعه مخالفوه قائلين إن ذلك يقتضى التجسيم وتشبيه الله بخلقه. فرد عليهم قائلا إن جميع الـكتب السماوية مصرحة بذلك تصريحاً لايقبل الجدل ، والله أعلم حيث يصف نفسه وأعلم بما يجوز فى حقه وما لايجوز . وقائلا إن المسلمين قائلون بذلك قبل ظهور هؤلاء المخالفين بلا نزاع بينهم . وقائلا لهم أيضاً ـ وما أبلغها حجة ـ إنكم أنتم وجميع العقلاء تصفون الله بصفات العلم والقدرة والسمع والبصر ونحو ذلك . ولم يقتض أن يكون تشبيهاً أو تجسيما ، ومثل ذلك وصفه بالعلو وبالاستواء على العرش ولا فرق بين الأمرين . وقائلا إن جميع فطر البشر قائلة بذلك ، والناس كلهم مفطورون على الإيمان بأن الله فوق خلقه ولهذا يرفعون أيديهم وأبصارهم مع اتجاه قلوبهم إلى السماء عند ما يرغبون أو يرهبون . وقدكان الفلاسفة فلاسفة اليونان وغيرهم يقولون بعلو الله سبحانه وتعالى ، ذكر ذلك ابن رشد فى فلسفته

رابعاً ـ أمره باقامة الحدود وأخذ المجاهرين بالمعاصى بالشدة فى زمان نسى الناس أن ذلك من الدين . فشق هذا على قوم لايستغنون عن المجاهرة بالعصيان وعن المجاهرة بالبغى والعدوان ، فلم يجدوا بدا من مناوأته دفعاً عن أنفسهم المريضة

خامساً — قال : لا معصوم من الخطأ غير الأنبياء ، وقال : ليس هنالك من يحرم الاسلام مخالفته سوى نبى الله عليه الصلاة والسلام ، وَإنه لا يجوز للمسلم أن يدع حكم الله أو حكم رسوله ، اذا ما بان له وَصح عنده ، لقول انسان ما ، وَإن للمسلم أن يتفهم كتاب الله ويتدبره وَإنه لا حجر على العقول وَإن التفكير فى حدود الاسلام ودائرة القرآن والسنة مباح بل لازم مفروض

هذه مجامع الأمور التى دعا إليها الشيخ والتى أنكرها عليه الناس فى زمنه والتى ينكرها عليه اليوم خلق كثير

وبنظرات صادقة نستطيع أن نحكم بأنه فى أقواله هذه كلها لم يخالف الاسلام فى شىء ولم يقل غير ما قال الله وَما قال رسوله وما أطبق عليه المسلمون فى عصور الاسلام الأولى القوية . وَيتبين ذلك واضحاً لكل من وفق أن يقرأ كتب السلف قراءة فهم وتدبر

نظرة نافذة

ينظر قوم إلى هذه الدعوة نظرة طائشة سطحية لاتنفذ إلى روحها فلا تنال شيئاً من إعجابهم فيرجعون منكرين عليها أو نائين عنها على الأقل . وقوم آخرون لا يهمهم أن يفكروا فيها ، بل لا يهمهم أن يفكروا فيما لم ينشأوا عليه وما لم يجدوا عليه الآباء والأجداد . وهؤلاء هم الذين لا يهمهم حق وَلا باطل ، فلا يؤسفهم أن يفوتهم الحق كما لا يرضيهم أن يكونوا على الحق . فلا عجب إذا لم ترق هذه الدعوة فى أنظار هؤلاء

ولا عجب إذا لم يكونوا من أهلها . وهؤلاء لو كانوا على غير الاسلام لما فكروا فى الدخول فيه . وأمّا أولئك الذين ينظرون إلى الأشياء ولا سيّما الأشياء الروحية نظرات نافذة فاحصة ، أولئك الذين يؤسفهم أن يمس اعتقادهم أو آراءهم شيء من الخطل والاعتساف والضعف . أولئك الذين يعلمون أن الله سبحانه لم يخلق لهم العقول والحواس عبثاً وإنما خلقها لهم لينظروا بها فيميزوا ويختاروا لأنفسهم أجمل الآراء وأفضلها . هؤلاء هم الذين تعجبهم هذه الدعوة الصحيحة الناضجة . هذه الفكرة الإسلامية الأولى قبل أن تشوب الإسلام الشوائب الأجنبية ، وقبل ان تعفو على عقيدته الصحيحة عوافى الأغراض والأهواء والجهالات .

إن روح هذه الدعوة ومغزاها الأكبر هو أن يكون المسلم عزيزاً بربه ، عزيزاً بدينه الإسلام ، عزيزاً بنفسه . لا يعرف الذل والخضوع إلا لله رب العالمين، ثم يعلم بعد ذلك أنه إن لم يكن فوق أهل الأرض كافة فليس دونهم كافة ، وليس لهم عليه ميزة إلاّ بالفضائل التى هو قادر على السبق بها والاتيان بغرائبها

هذه الدعوه ترى أنه من أكبر الجنايات على الإنسانية وعلى الشرائع السماوية أن يخضع المرء لغير ربه وأن يخضع لعبد من عباد الله حياً كان ذلك العبد أو ميتاً ، وترى أنه من أعظم الخطل أن يشعر المرء قلبه خوف مخلوق ما ، وأن يملأ جوانب نفسه برجاء مخلوق ما حياً كان ذلك المخلوق أم ميتاً . خلق الله الإنسان عزيزاً فيجب أن

يظل عزيزاً ، ذا كرامة فيجب أن يحافظ على كرامته ، فلا يهينها بالخضوع لعبد مثله ولا سيما إذا كان ذلك العبد ميتاً . فلا يرجع إلى مخلوق ما إذا ما رغب أو رهب ، إذا خاف أو رجا . يجب أن يكون الإنسان عزيزاً بربه فى حالتى السراء والضراء فلا يمد يديه إلى الارض إلى ذلك الميت فى الحضيض قائلا : يا فلان أعطنى بل يرفع يديه إلى السماء إلى ما فوق السماء إن كان ثمت شىء فوق السماء قائلا : يا الله أعطنى . يضرب فى الأرض شرقاً وغرباً بل يضرب الأرض نفسها بعصاه ويديه طلباً لما يحتاج اليه قائلا : يا هذه إن الله سخرك لى فلا بدّ من أن أنال حاجتى منك بعز وإباء

هذه الدعوة تقول : كتب الله لنفسه المجد والعزة فى السماء ثم كتبهما للمسلم في الأرض فلا يفرط فى ذلك المجد وتلك العزة فيذبحهما على عتبات الأولياء والصالحين على حساب التوسل والولاية والورع

هذه الدعوة تقول : إن من اعتاد الخضوع للأموات هانت عليه نفسه وهانت عليه كرامته وهان عليه الخضوع لمن يحمل فى يديه الحديد والنار من الأعداء المغيرين الغاصبين ، فلا يستطيع الدفع عن الحرمات أو الذياد عن الوطن ، كما لا يستطيع أن يقف فى وجه الباغى المعتدى قائلا : قف مكانك . إن ها هنا رجالا لا يهابون إلاّ الله ولا يخضعون إلاّ له

هذه الدعوه تقول : إن غلو المسلمين فى الأولياء الممزوج بذلك الخضوع التام بهذا الشكل المسمى توسلا ووساطة هو الذى أصار

المسلمين فى الشرق والغرب يستلينون فراش الذلة والهوان ويستطيبون البغى والعدوان . ولولا هذا الذى اعتادوه فاستعذبوه لعزت منهم نفوس ولقالت لأن نلقى الله أعزة لم نخضع إلاَّ له بين طعن القنا وخفق البنود ، لخير لنا من أن تلقانا الحياة المشوبة بالذلة والمهانة بين لحن الغوانى وضرب العود

هذه الدعوة تقول إن الإسلام يريد من أهله أن يكونوا أعزة فعلمهم ألاَّ يخافوا إلاَّ الله وألا يفزعوا إلا إليه وحده . يريد منهم أن يكونوا عبيداً لله فيخصوه بالخوف والرجاء ، ويخصوه بكل أوضاع العبودية ومعانيها ، لايخشوا جباراً مالكا ما ملك من أسباب القوة والسلطان ، ولا يرجوا مخلوقاً معطى ما أعطى من أسباب الدنيا والكرامة . يريد منهم أن يعيشوا كما ولدوا أحراراً . ولكن هؤلاء أرادوا لأنفسهم مالم يرده الله لهم ، فهانوا عليه تعالى وهانوا على أنفسهم وهانوا على الوجود كله ، فحقت عليهم كلمة الله القديمة (وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) وحقت عليهم كلمة الوجود الأزلية : من أهان نفسه لم يحترمها الوجود

ياسبحان الله ما أجهل الإنسان وما أكثر عجائبه !! بينا نرى فريقاً منه يأبى السجود لخالق الوجود ، نرى فريقاً آخر تذل نفسه وتصغر فيرضى السجود للإنسان . الإنسان الميِّت ، ويرضى له بالعبودية . وبينا نراه يمعن فى الهرب من الموت لهوان الموت والميت عليه إذا بنا نراه

ينسى ذلك ، فيخر أمام الميت خاضعاً ذليلاً مستغيثاً به ، وهو فى هذا كله يرد على نفسه ويعترف بفعله ، وإن أبى بقوله ، بأن الميت خير منه وأنه إذ يهرب من الموت إنما يهرب من الحياة ومن الكمال والقوة والعزة أيضاً

جعل الله الموت برهاناً على بطلان عبادة الإنسان الإنسان ، فاتخذ الإنسان لجهله ذلك دليلاً على عبادة الإنسان ، فعبده يوم يموت وعبده يوم يقوم البرهان على بطلان عبادته . وهو فى هذا يقيم الحجة من نفسه على نفسه بأنه أسخف المخلوقات وبأنه أحط أنواع الحيوانات ، وأنه مافاقها إلاّ بأن تفنن فى إبداع المساخر والمهازل وفى قدرته على الافتنان فى الضلال والحماقة . ولو أن الحيوان نطق لكان أول منطقه لعنه الإنسان على مارضى لنفسه من عقيدة ، وعلى مارضى لعقيدته من منكرات . ولو أنه نطق لكان من أول منطقه ألا يكون ناطقاً لئلا يكون إنساناً ، يرضى لنفسه أخس الأشياء ويختار لها ألأم الأنصباء

هذه الدعوة تقول : المسلم يجب أن يكون قوى الإرادة حرها لا يتعاطى شيئاً يضعف إرادته أو ينتقص حريته ، فلا يتعاطى الخمرة ولا يسرف فى قصد الملاهى ودور الطرب وفى التجميل الظاهرى ، ولا يتعاطى الدخان ولا سائر المخدرات « والمكيّفات » الضارة بالجسم أو بالعقل أو بالمالية أو بالإرادة والحرية ، ولا يلبس الحرير ولا الديباج ولا الذهب ، فإن هذه الأمور كلها تضعف الرجولية والحرية والإرادة ، كما تنتقص الجسم والعقل وتبيد المالية . ولا بد من حفظ المال

ولا سيّما عند الأمم الناشئة الضعيفة ذات المالية القليلة « ولا مجد فى الدنيا لمن قل ماله » كما يقوله « المتنبى » . وإن متعاطى هذه الأمور مأسور الحرية محكومها . وليس برجل كامل ، ولا شك ، ذلك الذى إذا فقد الدخان يوماً أو سويعات تغير خلقه وقسا وضعفت نفسه وأصبحت غير قادرة على القيام بأعمالها المعتادة . ذلك الرجل الذى لو منع الدخان سويعات لباع لازمات عيشه وحياته أو ملبوساته أو أثاث منزله أو ارتكب السرقة أو فعل ما استطاع فعله فى سبيل الحصول على ذلك « الدخان » الذى اعتاد تعاطيه فأصبح غير قادر على فراقه وأصبح عبداً لتلك اللفائف المضحكة من عقل شاربها . وليس برجل كامل ذلك الفتى أو الرجل المحلِّى أصابعه بذلك الذهب البراق الوهاج ، أو المكتسى ذلك الحرير الناعم الضعيف . ذلك الفتى أو الرجل السائر بين قومه المغلوبين المستعبدين أو الجائعين العارين ، ينظر تارة إلى ذلك الخاتم البراق ، وتارة إلى ذلك الثوب الحريرى الضعيف الناعم ، نظرات كلها الغرور والعجب والكبرياء . نظرات الطاووس إلى ريشه وعرفه . ذلك الرجل أو الفتى لا يزيد على أن يكون طاووساً أو فتاة مدللة أو دمية وضعت فى ركن من أركان البيت إذا ماجد الجد واحمر البأس ، وأصبح الفوز والسلطان للرجولة الخشنة ، وللأيدى والأظافر الناشفة الشثنة ، وإذا لم تفد تلك الغانيات التى اختار التشبه بها بأنفسها وما تملك إلا ذلك الرجل الأغبر القوى أو ذلك الفتى الأبى العصى ، لا ذلك المؤنث الناعم الطرى

وإنه لمن بجور القانون وخطل الرأى ان يوضع الدخان أمام أمة فقيرة كالأمم الإسلامية أو الأمة العربية غالبها فقراء فيحرقوا تلك الدراهم المعدودة فى لفائف ذلك السم المسمى بالدخان . وأن يباح لذلك العامل البسيط الذى يكسب فى نهاره الناصب كله بضعة « قروش » إن كان ذلك ميسوراً ، ومعه عدد تلك القروش من الأولاد ومن يعول ، فيحرق ذلك العامل نصف هذا المبلغ الضئيل فى ورق الدخان ليحرق به صدره العليل المنخوب . ويل لذلك القانون من عدالة السماء . إن أولئك القوم الذين لايرون رأى هذه الدعوة فى شأن الدخان لو اطلعوا على تلك الأرقام ، أرقام الجنيهات التى تعتصر كل عام من جيوب المصريين أو السوريين أو العراقيين أو غير هؤلاء ثم توضع فى جيوب شركات الدخان الأجنبية وجيوب باعة الدخان الأجانب ثمناً لذلك الدخان أو ذلك البلاء الموضوع فى الصدور ، إن هؤلاء لو اطلعوا على هذه الأرقام بعيون مبصرة ثم علموا أين تذهب هذه الأموال وماذا يعمل بها أولئك الجامعون لها من أعداء الوطن والدين والأمة على رغم أنف المجاملة ، وعلموا أثرها البطىء أو العاجل فى هيكل الأمة الجاهلة وبنائها ، ولماذا كان ذلك وما الدافع إليه وما الفائدة فيه : أقول لو أن هؤلاء الذين لا يوافقون هذه الدعوة على رأيها فى شأن الدخان علموا ذلك لما وسعهم إلا أن يقولوا إن إباحة هذا الدخان لأمة فقيرة كالأمم الإسلامية لمن فجور القانون وجهل القانون

إننا إذا رأينا والداً فقيراً أو غنياً يمنع ابنه الطفل الجاهل ، أو ابنه

الرجل العاقل شرب الدخان ويشتد عليه فى ذلك المنع لغرض مالى أو صحى أو أدبى ماوجد عندنا ذلك الوالد سوى الثناء والمديح والشكر . فإذا ماوجدنا الشارع وهو أرحم بنا من والدينا ، أو وجدنا القائم بتنفيذ أحكام الشارع يمنع الدخان ويشتد فى منعه لغرض صحى أو مالى أو أدبى لم يكن منا سوى الإذعان والقبول والرضا التام

إن تعاطى الدخان بالشكل الموجود اليوم لمن أمر الدلائل على أن جهل الإنسان وسخفه لا يقفان عند غاية . ولو أن إنساناً لم ير الدخان وشاربيه فحدث عنه وعن شاربيه ، وعلم كيف يشربونه وكيف يجودون بالأموال الغزيرة الوفيرة ثمناً له ، لشك ذلك الإنسان فى عقول الشاربين وسلامة ألبابهم . وقل فى سائر المخدرات والمشروبات الروحية كذلك وأشد .

هذه الدعوة تأبى هذه الأشياء ولا ترضاها لأصحابها وتشتد فى إبائها . وها إيطاليا حرمت على الشعب الإيطالى كثيراً من المباحات والمستطابات لغرض اقتصادى صرف ، لمقاومة تلك العقوبات الاقتصادية النازلة بها . فهل قال أحد من الإيطاليين أو من غيرهم إن ذلك العمل خطأ جديد تقع فيه إيطاليا ؟!

هذه الدعوة تأبى الابتداع فى الدين إباء باتاً لاهوادة فيه ولا رفق ، وتدعو المسلمين إلى الاقتصار على ماجاء عن صاحب الرسالة وعلى ما أجمع عليه المسلمون فى صدر الإسلام الأول . لاتجيز مطلقاً نوعا من أنواع المحدثات التى أدخلها الناس فى الاسلام ، سواء كان الغرض

من ذلك الإدخال حسناً وبحسن نية، أم كان لهوى وسوء قصد. وهى ترى أن القول بجواز الابتداع فى الدين من أعظم العوامل الهدامة لصرح الإسلام، ومن أقبح الدسائس التى كاد بها الإسلام خصومه الذين ناوءوه كيداً ودساً بعد أن أعجزهم حرباً. وترى أن القول بجواز الابتداع هو نفسه من الابتداع الشنيع، ومن الفكر السيئة التى وضعها أعداء شرقوا بجماله وبعلوه على الأديان، فنصبوها أشراكا لتقويضه من القواعد. وهى ترى أيضاً أن الشرع، وهو شرع السماء، يفسد ولا محالة إذا مزج بالآراء الأرضية التي ليس فى استطاعتها أن تخلو من الهوى والدنس والجهل. وترى دين الله أجل من أن يترك عرضةً لمزجه بكل رأى يراه راءٍ قائلاً هذا بدعة حسنة. وترى أن الدين الذى يصنع به هكذا غير جدير بأن يدوم له الاحترام والقداسة فى الصدور، وغير جدير بأن يتقبله المؤمنون بقبول حسن برىء، وهم يعلمون أنه مزيج من شرع الله ومن آراء البشر. ثم هم يأبون الخضوع لشرائع لايدرون هل هى من شرع الله أم من شرع الناس الذى أضافوه إلى دين الله وحملوه عليه حملاً غير محمود، وهم يعلمون أن الله سبحانه لم يكلف عباده أن يتقبلوا آراء عباد مثلهم ويحلوها فى قلوبهم عقائد وإيماناً. هذه الدعوة ترى الشريعة الإسلامية غنية بما فيها من المحاسن عن بدع البشر وآرائهم، وترى أنه لم يفسد الأديان الأولى السماوية مثل هذه الفكرة، فكرة البدعة وجوازها. فلقد عبثت هذه الفكرة فى الأديان عبثاً ظل يتزايد إلى يومنا، وسيظل كذلك

إلى يوم يرث الله الأرض ومن عليها . والعاقل يأبى والله خطاب صديقه إذا ماعرف أن غيره عبث فيه وأدخل عليه مالم يكن منه وزاد فيه ، ويرى ذلك الخطاب غير جدير بأن يعتده خطاب صديقه وينيله من الاحترام والقبول مايكون لخطاب الأصدقاء . فأنى يقبل المسلم شرعاً قيل له إنه خليط من شرع الله وشرع عباده ، وقيل له إن فيه شرائع لم تكن منزلة من السماء ولم يكن يعرفها رسول السماء ، وإنما ابتدعها رجال من عند أنفسهم ابتداعاً لايدرى ألهوًى فعلوا ذلك أم لرأى رأوه .

وها نحن نرى الأحزاب تحافظ المحافظة كلها على مبادئها حتى على المبادىء الظاهرية الشكلية الصورية ، وتأبى التهاون فيها والإهمال فى شأن صغيرة منها . وترى فى المحافظة على تلك المبادىء ، ولو صورية ، عزها وقيمتها وبقاءها . وترى فى التفريط فيها ، ولو كانت شكلية ، ولو كانت فى شكل السلام ورفع الأيدى عند السلام ، أو كانت فى الزى ، ترى فى ذلك التفريط الهدم للحزب والهدم لأساس الحزب . وها أصحاب « موسلينى » وأتباع « هتلر » لايستطيعون أن يتهاونوا فى مبدإ من مبادئهم مهما كان ذلك المبدأ . يشددون كل التشديد فى المحافظة على « الفاشستية والنازية » ويقاتلون قومهم فى سبيل المحافظة على تلك المبادىء ، وينفقون الأموال الطائلة لأجل حفظ تلك المبادىء

وهؤلاء يعلمون أنه لايمكن أن تجتمع هيئة من الهيئات

الانسانية للقيام بأمر من الأمور فى الدولة إلاَّ بالرجوع إلى مبادىء يتفقون على احترامها والدفاع عنها ويرخصون كل شىء فى سبيلها، ويعلمون أنه لابدّ من العصبية لأجل حفظ تلك المبادىء التى اجتمعوا على تقديسها. وبغير مبادىء محترمة على ماذا يجتمعون وعن أى شىء يدفعون ويدافعون ؟! ويعلمون أن التهاون فى مبدإ من مبادىء الحزب هو فى الواقع تهاون فى المبادىء كلها . فما أخلق المسلمين إذن بأن يحافظوا على مبادىء الاسلام صغيرها وكبيرها، وما أخلقهم بألاَّ يفرطوا فى مبدإ من مبادئه صورياً كان أم حقيقياً، وما أخلقهم أن يشتدوا فى المحافظة وألا يقبلوا تغييراً لمبدإ من تلك المبادىء وإن قيل فى ذلك التغيير إن المراد منه صحيح وإن بقاءه كما هو قليل القيمة ضئيل الشأن

هذه الدعوة تقول إن المسلم يجب أن يكون مسلماً حقاً، يتقبل ما يفترضه الإسلام وما يدعو إليه بقوة، ويتجافى جهده عما يحرم الإسلام وما يأباه . فالمسلم يجب أن يصلى وأن يصوم وأن يحج وأن يزكى . . وأن يكون يداً عاملة مع المسلمين فى أطراف المسكونة، وأن يحس ما يحس المسلمون من خير وشر ومن هم وسرور ومن راحة وتعب، ويشعر بما يشعر به المسلمون، فيألم إذا ألموا ويسر إذا سروا ويثور إذا ثاروا. المسلم يجب أن يهجر المحرمات كالخمر والمخدرات والملاهى المضعفة للرجولة، المضيعة للأخلاق الفاضلة. والمسلم يجب أن يكون غيوراً على الإسلام أكثر من غيرته لنفسه وقومه ووطنه. والمسلم يجب أن يدعو

إلى الإسلام بشدة ويجاهد فى سبيله ويتحمل الأذى من جرائه . والمسلم يجب أن يحرص على الإسلام أكثر من حرصه على حزبه ومن يقدس من زعمائه ، وأن يعنى بالدفاع عنه كما يعنى الناس بالدفاع عن أوطانهم وحرماتهم

هذه الدعوة تقول يجب أن يكون للمسلمين قومية قوية . ولا قومية أفضل وأقوى من الإسلام . فيجب أن يجتمع المسلمون على الإسلام كقوميَّة شاملة عامة أقطار المسلمين فى الشرق والغرب . وتقول إن المسلم الذى يفقد هذه الأمور العليا السامية أو جلها ليس من المسلمين ولا من الإسلام فى شىء ، وما هو إلا سبة فى جبين الإسلام والمسلمين ، وعضو مشلول فى بدن الإسلام يؤذيه محمله وألمه وينتقل منه الداء إلى سائر البدن ، فلا يلبث أن يعم المرض البدن كله ، ولا يلبث أن يصبح مشلولاً مشوهاً .

هذه الدعوة تقول يجب أن يبعد الإسلام ونصوصه عن تلك التأويلات الباردة السخيفة الموروثة عن صوفية الفرس وبوذية الهند ، كتأويلات الصوفية الأثيمة وأهل الطرق الحائدين عن سبيل الأولين ، أولئك الذين مثلوا بالإسلام أشنع التمثيل فى قرون وقرون ولا يزالون إلى يومنا هذا يمثلون به . وترى أن إبعاد تلك التأويلات عن نصوص الإسلام المقدسة ضرورى لحفظ الإسلام ولبقاء جلاله وخلوده قوياً عزيزاً شيقاً مرموقاً بالإعجاب والتقديس .

وترى أن التمادى فى هذه التأويلات والإندفاع وراءها مذهب لقداسة النصوص من نفوس المؤمنين بها كما حصل . فلا مندوحة إذن عن الإبقاء على ظواهر النصوص ، ولابد من الذهاب فى تفسيرها مذهب الأولين ، مذهب السلف الصالح

هذه الدعوة تقدر علماء الإسلام كافة وتحترمهم كل الاحترام . لا تقدح فى أحد منهم ولا تجيز ذلك البتة ، غير أنها ترى أنهم غير معصومين ، وغير أنها لا ترى وجوب الاتباع المطلق لواحد منهم بعينه تقليداً أعمى . بل هى لا تقدم على كلام الله وكلام رسوله كلاماً ، ولا تخالف إجماع المسلمين ، وبعد هذا تختار من الأقوال والآراء أدناها إلى الحق والصواب . هذه الدعوة تحرص على الاستفادة من العلوم كلها ، ومن الصنائع والمخترعات كلها لا تأبى منها شيئاً ، وهى ترى أنه ليس هنالك نص صحيح يخالف الواقع أو العلوم الكونية المادية ، بل هى ترى أن نصوص الإسلام تساير العلوم والمدنيات كلها ، ولكنها تهجر ذلك اللهو والعبث والمجون المزدرى وإن سماه قوم رقياً ومدنية ، وما هو إلا الداء الوبيل الحال فى أجسام الأمم الشرقية الضعيفة

هذه الدعوة تقول : المجد لله فى السماء ، والعزة للمسلمين فى الأرض ، وتقول ما الدين سوى كلام الله وسوى كلام رسوله عليه الصلاة والسلام .

ما أصاب الدعوة من ضعف وانتقاص

قلنا إن هذه الحركة لم تزل تنمو وتتسع بعد وفاة مؤسسيها الأولين حتى بلغت مبلغاً تغبط عليه . وفى أول القرن الثالث عشر الهجرى بلغت على يد الأمير سعود المعروف بالكبير حفيد محمد سعود الآنف الذكر مبلغاً عظيما جداً . فقد خفقت راياتها على ربوع نجد كلها وعلى أطراف سوريا والعراق وعمان فى الخليج الفارسى ، وفكر صاحبها فى اقتحام الشام وغير الشام مما يصاقب جزيرة العرب ، وكان سلطانه الأدبى قد تجاوز الحدود وغمر سائر البلاد الإسلامية ، وأصبحت الدعوة قوة هائلة تهدد أكبر دولة إسلامية ، دولة الخلافة إذ ذاك . نخافها الأتراك كل الخوف وأشفقوا منها أيما إشفاق ، وفكروا جدياً فى الخلاص من هذه القوة الفتية الجديدة الواثبة من جزيرة العرب منبت محمد عليه الصلاة والسلام وأبى بكر وعمر ، الذين قلبوا وجه التاريخ والتى أصبحت تهدد سلطان الامبراطورية العثمانية المتداعية القوى . فأخذوا أولا ينشرون الدعاية السيئة ضدهم فى الممالك الاسلامية والتركية ، وأخذوا يذيعون عنهم من غير تحرج ولا رعى للعواقب أنهم وهابيون لا يحبون أهل البيت ولا يحفظون للأولياء حقاً ولا حرمة ، كما أخذوا يصفون دعوتهم هذه بالمذهب الخامس الوهابى استفزازاً لشعور الجمهور ، وجدوا فى هذه الدعاية كل الجد واستعملوا فى ترويجها من يوسمون بالعلم والتقوى من الشيوخ الرسميين ، واستعمل هؤلاء الشيوخ الكتب

بل والدروس والمنابر للقدح فى الوهابيين ورميهم بكبيرات الأمور ، فنجحوا فى هذا نجاحاً بقى أثره إلى يومنا هذا ، وبقى أثره عالقاً بالنفوس وقد ذهبت الدولة العثمانية صاحبة هذه الدعوة السياسية السيئة . ومن المؤلم جداً أن يظل كثير من المسلمين متأثرين بتلك الدعاية السيئة التى كانت لغرض مخصوص في زمن مخصوص

هذا أول ما قاموا به من محاولة القضاء على هذه الحركة الفتية . وأخذوا ثانياً يستنهضون أمراء العرب والمسلمين ويستحثونهم على مقاومة هذه الحركة ، ثم أخذوا يمدونهم بالرجال والسلاح والمال . وكان أعظم قوة استعملوها فى هذه المحاولة هى إغراء محمد على باشا الكبير والى مصر بحربها فصادف هـذا الاغراء هوى طموحاً فى نفس محمد على باشا وعدها فرصة رابحة يستطيع أن يفيد بها ملكا جديداً ، ويستطيع بها الاستيلاء على الحرمين الشريفين . فأعد هذا العدد الكثيفة وأرسل الجيوش تلو الجيوش للحجاز ونجد ، وما زال مهتما فى الحرب ممعناً فيها حتى أتيح له أن يبلغ غرضه ، وحتى هزمت الجيوش النجدية وافتتحت العاصمة بعد خسائر فادحة تناولت الطرفين ، وأسرفت الجيوش المصرية بعد الظفر فى العدوان حتى لقد أحرقوا بلدة الدرعية العاصمة ، وبالغوا فى محاولة إضعاف هذه الدعوة وكبتها . قال الدكتور طه حسين من مقالة له فى هذا الموضوع : « ولولا أن المصريين والأتراك اجتمعوا على حرب هذا المذهب وحاربوه فى داره بقوى وأسلحة لا عهد لأهل نجد بها لكان من المرجو جداً أن يوحد هذا المذهب كلمة العرب فى

القرن الثانى عشر والثالث عشر للهجرة كما وحد ظهور الإسلام كلمتهم فى القرن الأول » .

وفى الواقع أن لانهزام الجيوش النجدية أسباباً متعددة . منها ما ذكره الدكتور ، ومنها الخيانات التى قام بها شريف مكة وغيره من الأمراء . ولعل منها أن القيادة النجدية كان يعوزها بعض التنظيم . والمؤرخون النجديون يذكرون أن السبب فى ذلك هو فشو المعاصى فى البلاد النجدية أثر الترف الناجم عن الانتصارات التى أحرزوها

وبعد هذا العمل الذى قام به الأتراك والمصريون ظلت الدولة التركية تسوق الجيوش بعد الجيوش لوطء نجد والقضاء على كل حركة وقوة من شأنها أن تنازع الدولة العثمانية السيادة يوماً ما ، وأخذوا يقوون أمراء ضعافاً بقصد منازعة من يظهر من آل سعود . فبرز فى الميدان آل الرشيد والأشراف ، وبرز غيرهم . وهم فى هذه الأثناء كلها جادون فى بث الدعاية حتى جعلوا القدح فى الوهابيين مادة تدرس فى مدارسهم

بهذه القوى المتظافرة ضعف سلطان آل سعود وضعفت دعوتهم الدينية واشتد ضعفها واختفت مدة وكاد يطول اختفاؤها ، واشتدت الحال حتى لم يبق فى أيدى آل سعود من حكم نجد شىء . واستولى آل الرشيد حلفاء الاتراك على البلاد النجديه ، وأعملوا السيف فى آل سعود وكادوا يقضون عليهم . وآل الامر بالامام عبد الرحمن ان جلا ومعه نجله الامير عبدالعزيز (الملك المعظم الآن) الى الكويت فى ضيافة

آل الصباح امراء الكويت . وبهذا تم ابعاد آل سعود عن نجد .
والنجديون يعتبرون آل سعود وزعماءهم وائمتهم الدينيين ويعتقدون بطول
تجاربهم انه بغيرهم لا تقوم للدين قيامة فى نجد

بيد أن النجديين ، وان فصل بينهم وبين آل سعود، فانهم مازالوا
معهم فى االدين والحب والعقيدة . وهم وان خضعوا لغيرهم فى الظاهر
فانهم لم يخضعوا الا لهم فى الباطن . ولهذا فانهم ، فى المدة التى فصلت
بينهم وبينهم ، مازالوا يأملون عودتهم اليهم ومازالوا يصوغون الأناشيد
العذبة المبهجة ، وينشدونها فى أيامهم وأيام حكومتهم

وكم كانوا يبكون على أيامهم الغر كلما أراهم المحتل الغريب ألوان
الظلم والعسف ، وكلما أراهم الجنوح عن الدين الحق .

الشبل الثائر والبطل الذى لم يهزم

قلنا إن الأمر آل بالامام عبد الرحمن أن غادر بلاده قاصداً بلاد
الكويت ومعه نجله الأمير عبد العزيز . ونقول الآن إن الأمير الغلام
عبد العزيز بقى فى كنف والده فى ضيافة آل الصباح أمراء الكويت
إلى أن بلغ سن الرشد وناهز العشرين من عمره ، ثم بدا له فى تلك السن
أن يغامر فى حياته ليسترجع ملك أجداده المسلوب المنهوب، وأن ينازل
آل الرشيد حكام نجد الذين تم لهم الاستيلاء عليها بعد آل سعود
نهائياً ، وأصبحوا لا ينازعهم منازع فى ذلك القطر المترامي الأطراف
صمم على هذه المغامرة تصميما لا يستطيع شيء أن يقف فى سبيله

إلا أن يكون الموت . وبعد أن فكر فى رسم الخطة طويلا ، وبعد أن استشار والده واستشار أصدقاء العائلة السعودية ومن يظنهم موطناً للاخلاص والولاء ، خرج من الكويت ومعه أربعون رجلا من العائلة السعودية ومواليها . وفى الطريق انضم إليهم عشرون فأصبحوا ستين ، وهم كل من استطاع جمعهم وثباتهم فى وجه الخطر . خرجوا يحملون زادهم المتواضع وأمتعتهم القليلة على الابل ، ووجهتهم اقتحام نجد ومنازلة القوى الرشيدية . وكانت أنشودتهم المرددة معنى قول الشاعر .

* نحاول ملكا أو نموت فنعذرا *

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم   بين طعن القنا وخفق البنود

يا للبطولة ! أربعون رجلا بأيديهم أضعف السلاح والعدة يخرجون لافتتاح قطر شاسع فيتم لهم ما أرادوا !! يا للمعجزة . !!

ساروا فى سبيلهم ووصلوا الحدود النجدية واقتحموها وهدفهم الأقصى العاصمة وافتتاحها . وبعد أن ساروا وشقوا قلب التوى كما يقول المتنبى وصلوا العاصمة متنكرين . وبعد التفكير والمشاورة كانت خطة الهجوم التى اتفقوا على وضعها والهجوم على مقتضاها أن ينقسموا فرقتين : خمسين رجلا يكمنون خارج العاصمة ، وعشرة وعلى رأسهم الأمير عبد العزيز يقومون بالهجوم ويفتتحون القصر ويخرجون روح من حاول منازلتهم . وفعلا افتتح الأمير الشاب قصر العاصمة وقتل نائب حكومة الرشيد ، وتم له الاستيلاء على القصر ونادوا بدخول الأمير السعودى واستيلائه على القصر . ثم تم الاستيلاء على العاصمة سنة ١٣١٩ هـ

وقدم الوجهاء والأعيان بالطاعة للأمير وأظهروا السرور والغبطة بما تم. وحق ماأظهروا وماقالوا، فان حب آل سعود قد مازج قلوب النجديين وخالط اللحوم منهم والعظام. وبعد أن تم تسليم الرياض له ودانت بالطاعة وثبت مركزه واطمأن إلى ذلك شرع فى افتتاح بقية البلاد وفى منازلة القوات الرشيدية المتناثرة فى البلاد النجدية، كما شرع آل الرشيد من جانبهم فى محاولة القضاء عليه وعلى نفوذه الفتى. ولكن الله شاء لهذا الأمير الشاب أن يكون المنتصر، وأن يستعيد ملك أجداده وأن تقع البلاد النجدية الواحدة بعد الواحدة فى قبضته حتى تم له تكوين هذا الملك الواسع وهذه المملكة التى يعلق المسلمون عليها الآمال.

تلاحقت الحوادث مسرعة فى مصلحة الأمير وفى مصلحة الاسلام والقضية العربية أيضاً. فى سنة ١٣٣١ هـ. افتتح بلاد الاحساء أخصب بقعة تقريباً فى بلاد العرب، وأخرج الحامية التركية منها بمجازفة عجيبة. وفى سنة ١٣٤٠ هـ. فتح حائل عاصمة الرشيديين وقضى على حكمهم نهائياً. وفى سنة ١٣٤٤ تم الاستيلاء على الحجاز وإخراج الهاشميين

وبهذا كون من ممالك وإمارات ذات عدد مملكة واحدة ذات شأن وسيادة، أعادت للعرب والاسلام تاريخاً كان يعوزهم من مئات الأعوام. وبهذا عادت الدعوة الاصلاحية الى سيرتها الاولى، وعادت اليها الحياة والقوة والنشاط واهتم المليك بتوسيعها واصلاحها وافراغها فى قالب شديد الجاذبية جدير بالانتشار، واهتم بنشر العلوم والمعارف والقضاء على الأمية والجهل الفاشى، وأمن تلك البلاد التى ماأمنت من

مئات الاعوام الا تحت سيوف آل سعود وحدهم ، وقضى على عناصر الفوضى والهمجية والقلق ورفع للعرب ذكرهم وجعل لهم اسماً يرن فى مسمعى الدهر ، وطهر الحرمين وغير الحرمين من الدجل والتخريف ووتر أسباب القلق والهلع ، وأصبحت المملكة العربية السعودية فى كل فم أنشودة وفى كل قلب مسرة وعقيدة

فى سيرة هـذا البطل وفتوحاته المتلاحقة ما يستوقف النظر وما يستحق التفكير والمساءلة : هل فى الأمر معجزة ؟ وهل مرت الحوادث على وفق مصلحته ورضاه مراً طبيعياً ؟ أم إن فى الأمر خارقة ؟ ! لقد انتصر فى جميع حروبه انتصاراً باهراً حاسماً ، لم يهزم فى موقعة من المواقع التى اصطلى بنارها ، وقد يكون خصمه أكثر منه عدداً وعدداً وأحسن موقعاً حربياً ، كما قد يكون ممداً من الخارج معاناً من الداخل ، ومع ذلك كله فقد كان النصر خادم الأمير ثم السلطان ثم الملك عبدالعزيز . أفلا يكون فى ذلك خارقة سخرها الله لهذا الفاتح العظيم ؟!

أما أنا فانى أرى فى الأمر خارقة . وهى تتجمع فى أمرين اثنين خص الله بهما شخص الملك عبد العزيز . وهما الشجاعة المسبوقة بالحزم والحنكة ، والدين المسير باللين والحكمة . هذان الأمران وما يتفرع منهما هما الخارقة فى هذه الانتصارات ، وهما اللذان مكنا له هذا التمكين وخدما قضيته هذه الخدمة المرضية

وقد كان ينشد بيتى المتنبى :

الرأى قبل شجاعة الشجعان ... هو أول وهى المحل الثانى

فاذا هما اجتمعا لنفس مرة ... بلغت من العلياء كل مكان

وانشاده هذا الشعر وإعجابه به يظهر لنا سر انتصاراته وسببها.

وعلماء النفس يقولون إن الشجاعة أم لفضائل كثيرة . فهى يلازمها الجود والكرم والحياء . والدين تلازمه الرحمة والعدل والانصاف . ومن جمع هذه الفضائل بلغ من العلياء كل مكان

نبوغ الصحراء

الملك عبد العزيز الذى أسمعناك أول شأنه من الرجال الأفذاذ الذين ينبغون بين رمال الصحراء وصخورها الفينة بعد الفينة على حين عقم عن أمثاله وحاجة أكيدة إليه . ورجال الصحراء كالصحراء نفسها . فمنهم الرجال الذين يشبهون رمالها المهيلة ، تكفى لتبديدهم الرياح الخفيفة . ومنهم الذين يمثلون جبالها الرواسى الشوامخ ، لا تستطيع نقلها ولا إقلاقها عادية من عواديها . . والملك عبد العزيز هو جبل الصحراء الأشم المنيع ، تحطمت على صخرته عواديها التى حطمت من كان قبله من الخلفاء والأمراء والفاتحين . . فعلى صخرته تحطم الأتراك وآل الرشيد والأشراف وصاحب صنعاء . وعلى صخرته تحطم بلاء الأعراب والثائرين المتمردين . وعلى صخرته تحطمت الفوضى والتمرد والخروج

والفرقة والخوف والبغى ـ هذه الأمور التى لازمت الصحراء منذ عرفت الإنسان ومنذ سكنها الإنسان

رامته الحوادث ورامه المنافسون حتى أمس الناس به رحماً كل مرام . ورامه الذين كانوا يحلون منه محل اليمين من اليدين . وقاتله الذين كانوا يقاتلون فى صفه . فكان يخرج من بين هذه العوادى خروج السبيكة الذهبية من البوتقة المتقدة تزداد صفاء وضياء وقيمة . . وكانت هذه كلها تجربات ناضجة مقنعة مؤيدة

الناس يعجبون بزعيم ألمانيا « هتلر » وإيطاليا « موسلينى » ويرون فيهما أنبغ رجال العالم السياسيين فى هذا العصر . . ولكن إعجاب هؤلاء المعجبين بهذين السياسيين الداهيتين يتلاشى إذا ما وقفوا على نبوغ رجل الصحراء ووقفوا على سره ، ووقفوا على ما كان يحيط بنبوغه من عواد أتى عليها تحطيما

ليس النبوغ هو أن يخرج الرجل فى أمة معرقة فى الحضارة ، آخذة بكل آفاق التقدم والرقى والعمران والزعامة والعلم ، فيقول لها سيرى إلى الأمام إلى الموت والنار ، فتطيعه وتسير إلى ذلك راضية مقدسة له ، ويلقى على مسامعها الخطب النارية الرنانة فى الحض على التسلح والاستعداد للموت وملاقاة العدوان بمثله أو أزيد ، فتصنع ما أمرها به وتزيد . . ليس هذا هو النبوغ فى قاموس الألفاظ . ولكن النبوغ الذى يقف أمامه الناس كافة مشدوهين معجبين هو أن يأتى الرجل ـ ولا سيما إذا كان ابن صحراء ـ إلى الأمة المتأخرة فيقدمها ، الموضوعة

فيرفعها، المتفرقة فيجمعها، المتحاربة فيلقى بينها السلام والمودة، المتخاذلة فيصيرها متناصرة متعاونة، الجاهلة فيعلمها، الذليلة فيعزها، المحكومة فيعطيها استقلالها ويعطيها السيادة على غيرها أيضاً. يعطيها ذلك كله ثم يظل ينتقل بها من عز إلى عز، ومن شرف إلى شرف أمثل لا يعثر ولا يضل. هذا هو النبوغ الذى إن اختلف الناس على كل نبوغ فإنهم لن يختلفوا فى أن ذلك هو النبوغ الأكبر.. وهذا هو الذى فعله الملك عبد العزيز لقومه.. كانوا ضلالاً فهداهم الله به. وكانوا جهالاً فعلمهم الله به. وكانوا متفرقين فجمعهم الله به. وكانوا ضعافاً فقواهم الله به. وكانوا فقراء فأغناهم الله به. وكانوا أذلة مقهورين فأعزهم الله به، ومنحهم استقلالهم وزيادة. وكانوا عدماً فخلقهم الله على يديه خلقاً جديداً

من الميسور أن يكون المرء ذا خيال طيع ملىّ، فيملى عل قلمه آية البلاغة فى الإطراء والمديح. ولكن من غير الميسور أن يوافق الواقع ما قيل، ومن غير الميسور أيضا أن تملى نفس المرء على المرء أفعالاً تفرض على الموافقين والمخالفين احترامها والاعتراف بتفوقها

الملك عبدالعزيز شجاع تتضاءل عند شجاعته الأخطار والمخاوف. ولو أن ثمت لفظاً يحمل من معانى هذه الكلمة مالا تحمله هذه الكلمة لوضعناه له.. وهل سمعت بأشجع ممن ينازل دولتين بستين رجلا فيظفر بهما وينيله الله منهما ما يريد، كما فعل الملك عبد العزيز إذ نازل دولة آل الرشيد والأتراك فى بلاد آبائه فى حين لم يكن له فيه من

الشأن والخطر غير أنه شاب مخاطر فى حياته التى لا يملك سواها . يقود الجيوش فى الحروب بنفسه فيقدمها فى وجه الموت والخطر ، ويتولى القتال ومنازلة الرجال بسيفه ورمحه . ولقد عرض نفسه للموت مرات وجرح مرات لذلك . وهو لا يدع قيادة الجيش والمقاتلة فى مقدمته إلا حين يعلم أن الأمر ليس فى حاجة إلى ذلك . وكل البلاد التى تدين له اليوم بالطاعة والرضا قد فتحها بنفسه ما خلا القليل النزر ، وهو العارف بما يحدثه توليه قيادة الجيش بنفسه من الحفز للمقاتلين على القتال واستهانتهم بالموت ورضاهم بالقتل بين يدى مليكهم وسيدهم . ويخفى هذا المعنى الروحى القيم على زعماء ناشئين يبعثون برجالهم المغلوبين إلى ساحة الخطر والطعن والضرب ويظلون هم بين نسائهم وخدمهم . وما علموا أن هذا من أكبر العوائق لهم عن بلوغهم ما يريدون ونجاحهم فيما يطلبون ، وأنه من أعظم دواعى الفشل والخيبة . . والجنود التي يتقدمها سادتها إلى الأمام بين الطعن والضرب بالغة ولا بد ما ترجوه وما تتمناه

الملك عبد العزيز كريم إلى حد الإسراف . إلى حد أن أصبح هذا الخلق خلق الكرم ذنباً يؤاخذ عليه ، وإلى حد أن يلام على كثرة العطاء والجود ، وإلى حد أن يقال لا عيب فيه لولا أنه كثير الانفاق والبذل

ضحى يوم واحد يقفه المرء فى ذلك الميدان الأفيح أمام قصره العامر فى عاصمة ملكه الرياض ، فيرى الصادرين والواردين، ويرى وفود العافين ونجائب المستجدين، ويرى الأعراب يخرجون من ديوان العطاء وعليهم الأثواب الفضفاضة والعباءات المزركشة الملكية والعقل

و « الكوفيات » الزاهية ، ثم يرى تشعشع تلك الوجوه الصادرة بنور الرضا والغبطة وحمد المدخل والمخرج ، ثم يسمع إلى كلمات الحمد والثناء وكلمات البذل والإعطاء - ضحى يوم واحد يقفه المرء أمام ذلك القصر العامر فيرى هؤلاء الأعراب ويرى غيرهم من الوجوه المختلفة ، واللهجات المختلفة ، والوفود المختلفة ذوات المطالب المختلفة ، ثم يرى جيوش الراغبين فى عبد العزيز وفى عطاء عبد العزيز - ضحى يوم واحد يقفه المرء أمام ذلك القصر المقصود من كل فج من فجاج المملكة يبيح له أن يحكم بأن صاحب ذلك القصر هو أكرم الناس على الإطلاق وهو أجود الأجواد على الإطلاق

تضرب في طول المملكة السعودية وعرضها فلا تسمع من أفواه ذوى الحاجات ، وأى إنسان ليس من ذوى الحاجات ؟ إلا كلمات : إذهب إلى طويل العمر عبد العزيز . اقصد الشيوخ « أى الملك والأمراء » وجىء بالذهب والفضة والملبوسات وسائر الحاجات . نحن غداً ذاهبون إلى الرياض إلى قصر طويل العمر . قد جئنا اليوم أو البارحة أو قبل البارحة من عند الإمام عبد العزيز فأرضانا أرضاه الله

إن الضارب فى أنحاء المملكة السعودية لايسمع من أفواه ذوى الحاجات غير ذكر الملك عبد العزيز وغير عطائه وجوده

قف ذرور شمس يوم من سائر أيام الله على قمة تلك الربوة الحمراء المطلة على ذياك الوادى الأخضر الذى تتبطنه الرياض . تلك الربوة او الأكمة التى أصارها جود طويل العمر مدرجة الراغبين ، وسبيل

القاصدين، من أمراء القوم وسوقة القوم ووجوه القوم ودون القوم، وانظر ماتدفعه تلك الشعاب النائية والأطراف الشاسعة إلى تلك الربوة الحمراء، ثم ماتدفعه تلك الربوة إلى ذياك الوادى الأخضر الذى تتبطنه الرياض من النجائب الراغبة والوجوه الآملة الطالبة، وتأمل خبب تلك النجائب وضياء تلك الوجوه، لأن المناخ فى ساحة طويل العمر قد آن والحاجة قد قضيت والمعروف قد نيل. ثم انظر ثانياً مايدفعه ذياك الوادي الأخضر إلى تلك الربوة الحمراء، ثم ماتدفعه تلك الربوة إلى سائر الشعاب والأطراف النائية من نقود ابن سعود وأثواب ابن سعود ونجائب ابن سعود وحبوب ابن سعود وكتب ابن سعود وعلم ابن سعود وخيرات ابن سعود وحمد ابن سعود والثناء على ابن سعود، ثم لاعليك بعد ذلك أن تحلف بأن صاحب ذلك الوادى الواقع تحت تلك الربوة أجود الناس وأكثر الناس إفضالاً على الناس، ثم لا عليك أن تخشى حنث القسم وكذب القسم.

قد عهد الناس أن يجود الكريم بماعنده من المال والحطام، وبما تملكه يداه من الذهب والفضة والمتاع. ولكن الشيء الذى لم يعهده الناس أن يجود الجواد بالدولات، وأن يجود بالبلاد ويضعها فى هباته، فيخرج منها طائعاً راضياً بعد أن ملكها بسيفه وسنانه، يخرج منها ويهبها لسائله إجابة لداعى الكرم ونداء الكرم. وقد كنا نسمع قول الشاعر:

إلى الذى تهب الدولات راحته ولا يمن على آثار موهوب

فنحسبه من خيال الشاعر العابث الشرود، فإذا بالملك عبد العزيز

يرى الناس مالم يروْا من أنواع الكرم ، وإذا به يصدق خيال الشاعر الشرود ، وإذا به يهب الدولات حقاً ولا يمن على آثار ماوهب . . . أما بغى عليه جاره وأخوه وصديقه إمام اليمن منذ عامين فأمكن الله له منه ، وولاه قسماً كبيراً من بلاده وفيه أحسن مفاتيح اليمن البحرية ، فيه ميناء الحديدة . أعطاه الله ذلك كله ، وكان له حق البقاء الأبدى فيه وكان قادراً باذن الله على غيره ، وكان النصر يرفرف أمامه ويخدمه أينما حل . فلما أن دعى إلى الصلح والهدنة باسم الكرم وبلسان الضيافة أجاب . فلما أن قيل له دع ماملكت وأخرج قواتك منه باسم الكرم والجود بلسان الضيافة والأضياف قال سمعاً وطاعة . فلما أن قيل له تحمل المغارم التى تكبدها جيشك من جراء عدوان جارك قال سمعاً وطاعة . فأخرج قواته ، وتحمل الخسائر التى جرها عليه غريمه وحده . فإذا بصوت الشاعر ينبعث بعد ألف عام :

هو الذى تهب الدولات راحته   ولا يمن على آثار موهوب

الملك عبد العزيز خطيب مفوه ، فارس من فرسان الكلام الممتازين . من أولئك الخطباء الموهوبين الذين أعطى كلامهم النفوذ المطلق فى ألباب سامعيه . لاشبهة ولا ضلالة ولا هوى - لاشىء من ذلك يستطيع أن يحول بين حجته وبين فؤاد سامعه . ما كلم أحداً إلا أقنعه ولا جادل خصما إلا فلجه ، وما دخل عليه أحد بقلب إلا وخرج عنه بقلب آخر ، ولا قابله من يحمل عليه الموجدة والبغض إلاَّ فارقه يحمل له الحب والرضا . يذيب السخائم من القلوب ، ثم يضع مكانها المودة

والهوى . يجلى الشبهات من النفوس ثم يضع فى مواضعها الحجج والعقائد . مازال يستل من نفوس مخالفيه الإحن حتى ذهبت الكلمة النجدية القائلة « الملك عبد العزيز ساحر » . جاءه بعض الرؤساء بعدعداوة طال أجلها ، فأقام فى معروفه أياماً ، فلما حانت ساعة الوداع وقف ذلك الرئيس وقال بصوت يدل على التبدل والإخلاص الطريف : سحرتنى ياعبد العزيز ، سحرتنى ياعبد العزيز

يخوض فى ميادين الكلام كلها . يخوض فى علوم الدين ويناقش المتخصصين فى ذلك، ويقيم عليهم الحجج ويفرض عليهم قبول براهينه ، ويدافع عن مذهب السلف دفاعاً لعل العلماء أنفسهم لايستطيعونه ، ويشرح ذلك المذهب لمجالسيه شرحاً لعل غيره من أفذاذ العلماء يقف دونه . وله فى ذلك كل عام مواقف بين كبار الحجاج يرسل فيها من حر الكلام دفعاً عن مذهب السلف وعن القضية العربية ماتنشره صحف العالم خطباً تقذف ناراً ونوراً ، ويقرؤها المسلمون وغير المسلمين بين الإعجاب والدهشة والرضوان ، ويحتفظون بها كمثل عليا لكلام الأمراء ، ذلك الطراز الذى فقدوه من مئات الأعوام مستعيضين بدله لكنة الأعجام وكبرياء الأعجام ، ذوى الحجاب والاحتجاب

ما أجمل الملك العظيم بين شعبه يتمتع بالنظر إليهم ويتمتعون بالنظر إليه ويسمع منهم ويسمعون منه !! وإن أجمل من ذلك أن يكون بينهم يعظهم فى الله ويعلمهم الدين وما يرضى رب العالمين

ويخوض فى علوم التاريخ والآداب من نثر وشعر ويباحث

المتخصصين فى ذلك ويجيد الخوض والمباحثة ، وله ولع خاص بالشعر وأعنى به شعر الحكمة والحماسة ، ومن ولعه بذلك كتبت الأبيات الشعرية على جدر قصره . وقد نقشت الأبيات الآتية فى جدر القصر :

لسنا وإن أحسابنا كرمت ... يوماً على الأحساب نتكل
نبنى كما كانت أوائلنا ... تبنى ونفعل مثل ما فعلوا

فإما حياة لاتذم حميدة ... يحدث عنها من أغار وأنجدا
تنال المنى فيها ، وإما منية ... تريح فؤاداً خارمن علة الصدا

وقد كلم بعض الأدباء جلالته فى كلمة « ونفعل مثل مافعلوا » قائلا : إن علة الشرقيين أن يفعلوا مثل ما فعل أوائلهم . فأصلحها الملك مبادراً « ونفعل فوق مافعلوا »

والملك عبد العزيز يحب كل فنون العلم ويتفانى فى حبه

وأما فى السياسة فإننى أرى من البلادة أن أقول إنه يجيد السياسة أو إنه أبو السياسة ، الطبيب بمداخل النفوس ومخارجها ، العليم بأدوائها وعللها . وسياسته العملية أبلغ فى وصفها من قول القائلين فى مدحها

الملك عبد العزيز يخوض فى ذلك كله فيجيد الخوض فيه . فقد وهبه الله استعداداً فطرياً صارماً . وما كالاستعداد الفطرى هبة . وما أنفذ الاستعداد الفطرى فى صفحات الوجود الصامت ! ! ومن لم تعلمه صفحات الوجود فلن يعلمه شىء ولن يجدى فى تثقيفه وتكوينه مدارس ولا مدرسون

الملك عبد العزيز منذ ثلاثين عاماً قل أن مرت عليه ليلة لم يستمع

فيها إلى درس العلم من تاريخ وأدب وتفسير ودين . وقد رتب له قارئاً فصيحاً يجيد أداء الألفاظ يقرأ لجلالته كل ليلة فى مجلسه العام كتاباً ضخماً من كتب التاريخ أو التفسير أو الأدب ، مثل تاريخ ابن جرير وتفسيره ، أو تاريخ ابن كثير وتفسيره ، أو كتاب الآداب الشرعية ، أو نحو ذلك . فيقرأ له كل ليلة فى كتاب أو كتابين من هذه الكتب فى حال وجود الزائرين . فإذا ما دخل داخل أثناء القراءة جلس بصمت وهدوء حيث انتهى به المجلس . وبعد الفراغ من الدرس يقرأ السلام على الداخلين ، ثم يفاوض الجالسين فى بعض مباحث الكتاب الذى سمعوه ، ويبدى الملاحظات ، ويطلب إلى الحاضرين إبداء آرائهم ويهبهم الحرية المطلقة فى ذلك . فالملك فى هذا الصنيع يعيد عهد خلفاء صدر الإسلام ، ويبعث حقائق لأسلاف المسلمين كان المسلمون من قبله لا يظفرون بها إلا فى بطون الكتب والتواريخ

الملك عبد العزيز وقاف عند حدود الشرع لا يترك فرضاً صغر أو كبر ، ولا يأتى معصية من المعاصى صغيرة كانت أو كبيرة . يحافظ على الصلوات وعلى الصيام وعلى الحج ، ومنذ فتح الحجاز وهو يحج كل عام . لا يشرب شيئاً من المشروبات المحرمة ، ولا يسمع الأصوات التى لا يحلها الشرع كالغناء وضرب العود ، ولا يشهد حفلة فيها شىء من الحرام كالرقص واختلاط الجنسين ، بل ولا يوجد شىء من ذلك فى ملكه إلا أن يكون سراً لا يعلمه غير عامله ، ولا يعلم الغيب إلا الله . ولا يتهاون لأحد من حاشيته فى أن يترك شيئاً من الفرائض ، أو يعمل شيئاً من

المحرمات . وإذا ما حضر وقت الصلاة نهض مسرعاً إليها مجيباً النداء ونهض من معه ولا بد ، وهو يصلى الصلوات جماعة . وله فى قصر عاصمته مسجد يصلى فيه الصلوات فى أوقاتها . وهو معتدل فى ذلك وسط ، لا يشدد تشديد الغالين المفرطين ، ولا يتهاون تهاون الكسالى المفرطين . لا يقدم على كلام الله وكلام رسوله وكلام صحابته وأئمة الإسلام كلاماً ما . وهو يبدأ إذا ما احتج لمسألة سياسية كانت أو اجتماعية بكلام الله وبكلام رسوله وصحابته إذا ما حضره شىء من ذلك ، ثم يحتج بما يحضره من كلام العلماء والشعراء والحكماء والناس . ولا يفعل كما يفعل كثير من زعماء المسلمين اليوم ، ضعاف الإرادة والقومية من تهالكهم على كلام « المساتر ، والمسيوات » ومن إسنادهم كل ما يقولونه بما قاله « الهر فلان . أو السنيور فلان » . أولئك الزعماء المفتونون علة الإسلام والشرق . أولئك الذين يعدون حفظ القرآن والحديث والاستشهاد بهما فى المحافل مما لا يتفق والمدنية ، ومما لا يجوز للرجل العصرى الناهض « الاسبور » . فالملك عبد العزيز يرى الشرف الأكبر أن يحفظ الحجج من كلام الله ورسوله فيدلى بها فى المحافل . ولهذا فإنك إذا جلست بحضرته لم تسمع غير : قال الله وقال رسول الله وقال الخلفاء وقال الأئمة وقال الشاعر العربى . فمجالسه حفلة من حفلات العلم والأدب . وهو يصلى على الرسول عليه الصلاة والسلام كلما جاء اسمه الشريف . وما أكثر ما يجىء اسمه فى مجلسه . ولهذا فإنه يصلى عليه فى الجلسة الواحدة مئات المرات . وبعض الناس يظن أنه يقصد بذلك دفع تلك التهمة الشائعة

الكاذبة القائلة : بأن الوهابيين أو النجديين يأبون الصلاة على الرسول أو يسيئون إلى من يصلى عليه . والواقع أن الملك لا يقصد بذلك دفع هذه التهمة الكاذبة ، وإن كان حريصاً على دفعها ، وإنما يقصد بصلاته عليه الصلاة عليه والسلام الأجر والمثوبة . وهو يرى ترك الصلاة عليه عند ذكر اسمه لا يجوز لأحاديث نبوية جاءت فى ذلك . والنجديون كلهم لا يدعون اسم رسول الله عليه الصلاة والسلام يمر من غير أن يصلوا ويسلموا عليه،وكلهم يريد بعمله هذا الجزاء من الله

والملك يبدأ كلامه وخطاباته ببسم الله الرحمن الرحيم وبالثناء على الله والحمد لله ، وبالصلاة والسلام على رسوله الكريم ، ولا يصنع ما يصنعه المفتونون بتقليد الغرب من البداءة باسم الوطن أو نحوه بدل اسم الله والثناء عليه

والملك عبد العزيز عادل فى رضاه وغضبه . فى عفوه وعقابه . يغلب عفوه عقابه وحلمه غضبه كثيراً . ماجىء من ناحية العفو إلاَّ وجد سلساً قريبا طيعًا ولا سيما أخيراً . ولقد تناول عفوه كل أولئك الذين شرقوا بحكمه فناوؤوه من الحجازيين الذين تفرقوا فى الأقطار لبث الدعاية السيئة الكاذبة ضده وضد حكومته.فلما أعجزهم السعى والمناوأة وأرادوا الرجوع إلى كنف جلالته قبلهم وعفا عنهم ثم ولاهم الرتب والمراكز . وما عاقب منهم من كان بالعقاب جديراً ، ومن كانت الدول تعاقب على مثل فعله العقاب الصارم . وقد قام الكثيرون من ولاة جلالته بالثورة على حكومته كفيصل الدويش والإدريسى ومن

هو أقرب منهما إليه . فلما وضعهم الله بيده وأظفره بهم لم يجدوا عنده سوى الصفح الذى لا عتاب معه . وكثيراً ما تشكو رعيته إليه عمّاله إذا ما عاملوهم بالعدل الصارم الذى لا جور فيه ، فلا يلقون لدى جلالته سوى الغفران الواسع

وينشد كثيراً فى ذلك هذين البيتين من الشعر . وقد قيل إنهما مكتوبان فى غرف قصره :

تجاف عن العُتبى فما الذنب واحد
وهب لصروف الدهر ما أنت واجد
إذا خانك الأدنى الذى أنت حزبه
فواعجباً إن سالمتك الأباعد

الملك عبد العزيز يحكم شعبه بأمرين اثنين : بالشجاعة ، وبها يهيب من يهيب ويخضع من لم يصف قلبه من داء الحسد والتمرد . وبالدين ، وله يحبه شعبه ويتفانى فى حبه ويبذل أرواحه وماله فى سبيل رضاه وتعزيز ملكه ومركزه . ويرتكز على هذين الخلقين سائر أخلاق الملك السامية التى سمعت بها ، والتى لا بد منها فى تثبيت قوائم الملك والدولة كالكرم والصرامة والحزامة والعفو والحلم . فالنجديون يحبونه ويهابونه ويطيعونه ويحترمونه ظاهراً وباطناً فى المحضر والمغيب . وهو يعتمد فى دفع الخطر عن قومه وبلاده على قومه النجديين ، وهو يعرفهم بالإخلاص له . وعلى ميزاته الشخصية الموهوبة . ولكنه قبل هذين الأمرين يعتمد على الله وحده لا شريك له . وبتمسكه بالدين ولجوئه

إلى الله يعلم أن الله لا يخذله أبداً ولا يحرمه نصرته

الملك عبد العزيز معانيه لاتسعها معانى الألفاظ ولا تعبر عنها الكلمات . فلن يستطيع أن يفهمه القارىء مما نكتب أو مما يكتب غيرنا ، فهو سر الصحراء المجهول لا عن خمول وخفاء ، وهو نابغة الصحراء المفرد وابن الصحراء الأوحد . ولو أن الصحراء لم تنجب سواه لكفاها أن تفاخر المدن والأمصار . ولو أن العرب لم ينجبوا إلا إياه لكفاهم أن يساووا الأمم الحية إن لم يفضلوها . أو لو أن الإسلام لم يكن له من الأبناء إلا هذا النابغة لكفاه أن يكون من خير الأديان ولكفاه أن يكون معجزة من معجزاته

أرونا أيها النّاس رجلاً نشأ فى الصحراء صنع فى الأرض . صنع فى التاريخ . صنع فى أمته ماصنعه ابن الصحراء « عبد العزيز » . أرونا رجلاً وحيداً عاش طريداً عن بلاده ومقر آبائه استطاع فى حدود العشرين من عمره أن يخلص قومه وبلاده من براثن دولتين غاصبتين بحد الحسام . أرونا رجلاً جمع الفضائل كلها فى عصر جمع كل رجل من أهله الرذائل كلها . أرونا رجلاً جمع الدين والشجاعة والإنصاف والكرم والعدل والصرامة والحزامة إلى جودة الرأى وخصوبة الذكاء والدهاء والعفة ونقاء الظاهر والباطن . أورنا رجلاً له ذلك كله فى الشرق أو فى الغرب وإلا فلنسم الملك عبد العزيز نابغة القرن العشرين . أو رجل القرن العشرين . ورجل الإنسانية الكامل « وسبرمانها الأول » . ولتسمحوا

لنا في هذه التسمية . ولينشد لسان الأدب فى البدء والختام ، فى اليوم وفى سائر الايام :

يعزُّ على الأفكار ما هو فاعل   فيترك ما يخفى ويؤخذ ما بدا

ولقد عرفت وما عرفت حقيقة   ولقد جهلت وما جهلت خمولا

الاخوان والهجر

كانت البلاد النجدية كسائر البلاد العربية تحوي عنصرين متباينين فى الأخلاق والطبائع وطرق السعى للرزق والعيش : أحد العنصرين الحضر . والعنصر الآخر البدو أو الأعراب فى الأفصح . والأعراب يعيشون عيشة الشظف والبؤس والإجرام فى الأكثر . يعيشون من النهب وسلب أموال الناس قسراً . فالإعرابى اذا ما جاع ذهب يطلب قوته من النهب لا سبب له غير ذلك ، لأنه ليس له حرث ولا تجارة أو نحوها . وهم أجهل ما يكون الجاهلون ، لأنهم قصيون عن مهابط العلم والعلماء . والعلماء لا يرغبون فيهم ولا فى عيشهم لبؤسهم وجفائهم. وهم بعد ذلك قليلو الدين أو فاقدوه ، لأنه ليس لديهم من يعرفهم الدين ومن يعرفهم حق الله على عبيده . وعاداتهم بعد ذلك من أسوإ ما تكون العادات . وهم لا يؤمنون فى حرب ولا فى سلم . أما فى الحرب فلا يعنون بغير المغنم ، وهم مع الغالب ولا ريب . وقد ينهبون قائدهم اذا استطاعوا نهبه وإذا ظنوا أن الدائرة كائنة عليه . وأما فى السلم فهم عالة

على السلطان وعلى الأمة . وهم لا يثبتون على ولاء إنما وليهم الدينار والدرهم ، وهم يعتبرون الحضر أعداءهم جائز لهم حربهم وقتلهم إذا استطاعوا ولو كانوا أقرباءهم . ثم هم بعد ذلك كله جرثومة القلاقل التى تقع على الحدود ، حدود أمتهم وحدود جيرانها . لهذه الأسباب مجتمعة فكر جلالة الملك فى إنقاذ هؤلاء المساكين وتزهيدهم فى البداوة بصورة جدية مجدية . فشرع بهمة فى تحبيب سكنى الحضر إليهم ، فأرسل إليهم الوعاظ والدعاة يرغبونهم ويدعونهم إلى ذلك بشتى الأساليب ، وبعث إليهم الكتب لتثقيفهم ثم أخذ يشجع من يرغب فى سكنى الحضر بالهبات الجزيلة ويبنى لهم المساجد ويبعث إليهم الأئمة ومن يعلمونهم القراءة والكتابة . فرغب الأعراب فى سكنى الحضر رغبة صادقة وأخذ بعضهم يدعو بعضاً إلى ذلك ، فأقبلوا على اختطاط القرى وبناء المساجد وحفر الآبار . وكان أول قرية أنشئت لهذا الغرض قرية الأرطاوية عام ١٣٣٠ هـ . ثم تلاحقوا فى بناء القرى فانشؤوا مايزيد على المئة وسموها باسم « الهجر » (جمع هجرة) فأسرع الملك إلى إمدادهم بالمرشدين كى يعلموهم الدين والأخلاق العالية ويحثوهم على الزراعة وضرب الأرض طلباً للرزق . وأخذ هو نفسه يحثهم على هذا العمل المفيد إذا وفدوا عليه الفينة بعد الفينة فأثمر ذلك أطيب الثمر وأحبوا الدين وتفانوا فى حبه وأرخصوا أنفسهم وأموالهم فى سبيله . وتجاوزت بهم التقوى أن غلوا غلواً لم يرضه الملك منهم ولا العلماء .

نجد الملك والعلماء فى حملهم على الاعتدال والقصد، فاعتدلوا بعض الاعتدال ونسوا شيئاً من جفائهم . فأصبحوا عضداً جباراً لجلالة الملك فى مشروعاته التأديبية وأصبحوا من أقوى أنصاره فى الحروب لأن القوم شجعان أى شجعان ، لايهابون الردى ولا يكعون عنه أبداً . وقد كانوا فى وقت نزالهم يتغنون بهذا البيت الشعرى الفائض بحرارة الايمان:

هبت هبوب الجنه وين انت ياباغيها ؟

وكان الواحد منهم إذا مارأى قريباً له أو من يعرفه صريعاً فى الميدان أكب عليه وقبله وقال له : « هنيئاً لك الجنة والشهادة ، ياليتنى كنت مكانك » لأنهم يعتبرون قتالهم دينياً إذ هو دفاع عن قضية العدل والسلام . وكان الرجل منهم يدخل ميدان الحرب على أنه داخل ميدان الموت فهو لايفكر إلا أنه ميت . وكان الكثير منهم يندم كل الندم ويأسف ويطول أسفه إذا ما أتيح له أن يرجع من ساحة الحرب سالماً ، لأنه يرى سلامته دليلا على أنه ما أقدم الاقدام المفروض ولهذا سلم وهلك غيره ، ولأنه يرى رجوعه سالماً بغير الشهادة فى ميدان الدين والشرف غبناً مابعده غبن . وكان شعارهم الذى يستمدون منه الشجاعة وقت الطعن والضرب والهجوم قولهم أنا أخو من طاع الله « أطاع الله » نحن صبيان التوحيد أى خدام التوحيد والإيمان بالله .

وهاك مثالا واحداً من بطولتهم تستطيع به أن تعرف مقدار تأثير الدين فى أنفسهم .

بعد أن خرجت دول الحلفاء من الحرب الكبرى منتصرة ظافرة

على دول الوسط ، وخرج الملك حسين ملك الحجاز السابق ظافراً منصوراً على الدولة العثمانية التى أعلن عليها الثورة انقياداً لوسوسة الحلفاء ووعودهم التى خدعوه بها كغيره ومنوه أن ينصبوه ملك العرب الأعظم ، وأصبح فعلا ملك الحجاز وسيد الجميع هنالك ، بعد هذا كله ذهب بالملك حسين خيال العظمة كل مذهب ، وخيل إلى شغفه بالسيادة على العرب أن تلك الوعود السكسونية قد أصبحت حقيقة وأصبح هو ملك العرب ولا منازع . فراح يملى على أمراء العرب وزعمائهم أوامره كما راح يبعث لتأديب من يعصون أمره . وكان الملك عبد العزيز (السلطان إذ ذاك) ممن يأبون الخضوع له طبعاً ، فراح الملك حسين يعاقب من يظهرون له الميل والحب . وكانت « الخرمة ، وتربة » ، وهما واحتان تقعان شرقى الطائف ، تدينان لسلطان نجد دينياً وأدبياً ، فنهض الملك حسين لعقاب أهلهما عقاباً صارماً ، عقاباً يذكر به العرب عظمة ملكهم الجديد الأعلى ! ويخلق له الهيبة فى قلوب النافرين ، والإعجاب فى صدور المحبين ، فجمع القوات التى استطاع جمعها من الذين دربوا فى المدرسة الحربية التى أنشأها فى الحجاز ، وجهز تلك القوات بأحدث الأسلحة والذخائر التى غنمها من الأتراك ، وكان فى هذه القوة أبرع الضباط من عراقيين وسوريين وحجازيين ، وهم الضباط الذين التفوا حوله وحسبوا فيه المنقذ الأكبر . خرجت هذه القوة كاملة العدة والعدد وتقدر باثنى عشر ألفاً ، وخرج فى قيادتها الأمير عبد الله أمير شرق الاردن الآن وغرضها الأول تأديب هاتين الواحتين وافتتاحهما ، ثم ترمى بعد ذلك الى

إبراز العظمة الهاشمية وارهاب الخصوم وفي المقدمة سلطان نجد .
وكان هذا العمل كالمقدمة للغزو العام

وصل الجيش الهاشمى تربة والخرمة واستولى عليهما بلا مقاومة تذكر من أهلهما ، فسمع الإخوان بهذا العدوان الجرىء الذى لاوجه له عندهم سوى بغض الشريف لأهل نجد ودعوتهم السلفية ، وترامت إليهم الأخبار بما يأتيه الجيش الهاشمى مما لايرضاه الدين ولا العدل ولا الإخوان الشجعان الذين لا تلين قناتهم لغامز ، ولا يحابون فى الله ودينه أحداً ، فهاج هائجهم وتذمروا وتحمسوا كل الحماسة ، وجاءتهم الاستغاثة من أهل الواحتين فنفد صبرهم وكادت النفوس تنفجر منهم غيظاً ، فصمم بضع مئات منهم على أن يغيثوا إخوانهم المظلومين ، وأن يقدموا على عمل حربى يخرجون منه إما بالنصر الحاسم وإما بالشهادة وما أغلاها عندهم . ولا ريب أنهم عند تفكيرهم فى هذه المحاولة لم يفكروا فى ضعفهم وقوة خصومهم ولا فى العدد والعدد المزود بهما الجيش الغازى المعتدى . وإنما فكروا فى شىء واحد وهو : هذا عدوان لا بد من منازلته والقضاء عليه ، وهذا الله فى سمائه لن يخذل أبداً من دفع عن دينه وعدله فى أرضه ، ولن يتخلى عن قوم ظلموا لأنهم قالوا ربنا الله فثاروا لأنفسهم : فما هو إلا هذه الأفكار العلوية السماوية والهمسات النفسية المتزاحمة وامتلاء أنفسهم من الإيمان بنصر الله : ماهو إلا هذه وإلا أن هجمت مئات من الأخوان مهللين مكبرين يحملون أقدم السلاح ، السيوفَ المثلمة المفللة من قراع

الأبطال،والبنادق المصنوعة قبل ابحار العلوم والصنائع . وما هو إلا أن اشتبكت هذه المئات بذلك الجيش المدرب المزود بأحدث الاسلحة

تلا هذا الاشتباك صمت رهيب ، وفزع غشى النفوس فما الميت منها ميت ولا الحى حى ، ورعب وضع رقبة المقتول تحت سيف القاتل ، وذهول قتل المرء بيد أخيه . سويعات رهيبة خطبت فيها السيوف الخرساء ، ورقص فيها الموت رقصته المشؤومة وشرب وأكل من النفوس والدماء حتى شبع وبشم . سويعات عدت فى الأرض من ساعات الموت وفى السماء من ساعات غضب الحق على الباطل ، وثورة الحرية على الاستعباد والاغتصاب والاستبداد . سويعات انتهت بهذه الكلمات التى نزلت من السماء فملأت ما بينها وبين الأرض : كن أيها الجيش المعتدى فى الهالكين الغابرين . الإخوان قوة هائلة . الإيمان الصحيح القوى لاتغلبه قوة ولا يهزم أبداً . الدولة الهاشمية الحجازية صائرة إلى الفناء العاجل على أيدى صبيان التوحيد . الحكومة السعودية منيعة لا يرام حماها

انتهت تلك السويعات بهذه الكلمات التى نزلت من السماء ومن شفار السيوف فانطبعت على صفحات التواريخ والوجود وصفائح السيوف. فني ذلك الجيش الهاشمى ونجا منه الأمير القائد مع قليلين برأس طمرة ولجام، واستولى الإخوان المئات منهم على كل ماهنالك من السلاح والمال وسميت هذه الموقعة فى التاريخ الحديث بموقعة « تربة الفاصلة » فقد فصلت فصلا حاسما بين الحكومتين السعودية والهاشمية . وقعت هذه الموقعة

سنة ١٣٣٧ هـ وقد أكسبت الإخوان وسلطان نجد ذكرى تنخلع من هولها أفئدة الأعداء، وقرنت اسم الإخوان بالخطر الأحمر والويل لمن لم يقبل التوحيد والعدل.

كان القوم كما ذكرنا وفوق ماذكرنا. فهابهم الناس وضج من يصاقبهم خشية منهم ونصروا بالرعب، فكان عدوهم يهاب ذكر «الاخوان» و«الهجر» ويرى هذه الألفاظ مرادفة لألفاظ الموت الناجز والعذاب الوبيل والعفاريت المرسلة. فكانوا يهزمون الأعداء قبل اللقاء، وكانوا، إلا القليل النزر، يقصدون بحروبهم وشجاعتهم نصرة الدين المضاع وازهاق الباطل المنتشر، وهذا هو سبب شجاعتهم العجيبة وإلا فما كانوا كذلك قبل دخولهم فى الدين وتركهم البداوة. فالقوم كانوا قوة هائلة يعوزها بعض الاعتدال والتنظيم.. فقد كان فيهم، كما ذكرنا، غلو وكان فيهم قسوة وغلاظة. وقد كان جلالة الملك لا يغفل عن حملهم على الاعتدال بالشدة حيناً وباللين أحياناً، ولا يغفل عن إنارة الطريق فى سبلهم. ولولا حكمة جلالته ومتانة سياسته إياهم لكانوا قوة ضائعة بل لكانوا قوة تنحر أنفسهم قبل أن تنحر أعداءهم

ومما يذكر هنا فى حسن سياسته إياهم ماروى لنا أنه كان بعضهم يقول إن التيلفون سحر وإن الذى يتكلم فيه شيطان. فأراد الملك أن ينتزع هذه الفكرة الخاطئة من رؤوسهم. فما تظنه قال لهم؟ أتظنه حملهم على الشدة؟. كلا. إنه قال لهم: أسألكم هل الشيطان يقرأ القرآن؟! فقالوا: لا. فقال لهم: تعالوا واسمعوا القرآن من هذا الذى تقولون عليه

إنه شيطان . وأمر مخاطبه أن يقرأ . فلما سمعوه عرفوا خطأهم

وفى رأيي الخاص أنه لا بد من الغلو والشدة فى تكوين الأمور الجسيمة ، ولابد من الشدة لإشادة الملك الناشىء . وأظن أنه لو كانت وسائل الحرب كما كانت فى الزمان الأول لاستطاع الأخوان ، إذا نظموا ، أن يفتتحوا العالم مشرقه ومغربه ، ولما استطاعت قوة بالغة ما بلغت من العظمة أن تقف فى سبيلهم

هذا حديث الاخوان وحديث الهجر . فالاخوان هم الأعراب الذين عشقوا الدين وسكنوا الحضر . والهجر هى القرى التى اتخذوها وطناً لهم بدل الخيام المتنقلة . وعندى أن تحضير الأعراب بهذا الشكل المتقدم من أجل الأعمال الاصلاحية الاجتماعية التى قام بها جلالة الملك عبد العزيز ، وهو من أبرع الدلائل على حذق جلالته وبراعة سياسته . وأحسب أن هذا العمل هو النموذج الأول من نوعه فى بلاد العرب . ولو أن أولئك الخلفاء والأمراء الذين ذاقوا الأمرين من عدوان الأعراب وتعاستهم شهدوا ما صنع الملك عبد العزيز بهم لمدوا أيديهم مصافحين ولقالوا مرحى مرحى يا رجل العرب ! !

سؤال وجوابه

هنا سؤال يلهج به كثير ، وقد يضعه بعضهم فى قالب الاعتراض والقدح . ذلك أنهم قالوا : المعروف عن هذه الحركة ، من يوم نشأتها إلى عهدها الأخير ، أن تحمل مخالفيها على قبول آرائها بالسيف والنار وأن

تكرههم على الدخول تحت رايتها وطاعتها . وقد كان أصحابها يقاتلون قومهم ويشبون عليهم النار ويغرون بهم السيف إن لم يدينوا الحكومة أميرهم بالطاعة ولامامهم الدينى بالعقيدة . قالوا : وقدقامت فى داخل البلاد النجدية ملاحم دامية لذلك ودخل كثيرون من أهل نجد أنفسهم فى هذا المذهب بالاكراه ، ولو أنهم تركوا وما يختارون لأنفسهم لما دخلوا كلهم فى هذا المذهب . قالوا : وهذا العمل من أرباب هذه الحركة الوهابية دليل ناصع على أنهم يعتبرون من لم يقبل مبادئهم غير مسلم ويعتبرون المسلمين ، إن لم يقبلوا مبادئهم ، غير مسلمين . قالوا : ثم لو افترضنا أن الذين قاتلوهم غير مسلمين فهل يجوز حملهم على قبول الاسلام بالاكراه ، والقرآن يقول : (لا إكراه فى الدين)؟ !

هذا اعتراض أوسؤال يلوكه من لم يعرف حقيقة الأمر معرفة تامة . ونحن نقول فى جواب هذا السؤال وفى دفع هذا الاعتراض : إننا قد أشرنا فى فاتحة الكلام إلى أن النجديين كانوا قبل هذه الحركة فى غاية من مجانبة الدين وتعاليم الاسلام الحنيف ، وكانوا كغيرهم فى غاية من الفوضى والتوحش . نار الحرب لا تطفأ ما بينهم لأسباب باطلة لا تجيز حرباً ولا نزاعاً . القوى يأكل الضعيف والضعيف يأكل من هو أضعف منه . لا يقبلون غير حكم القوة والعصبية حكما ولا يلبون غير داعى الجبروت والجاهلية . يتفاخرون بالمقدرة على البطش بالناس ونهبهم عياناً تحت قساطل الجيوش ووميض السيوف . المغلوب لا يجد من ينصفه والغالب الظالم لا يجد من يقول له قف مكانك . لا يدينون

لسلطان واحد ولا يعترفون بالوحدة . لكل قبيلة رئيس ينازع الآخر السيادة ، بل قد يكون فى البيوت المتجاورة فى القبيلة الواحدة رؤساء متشاكسون لا ينظر الواحد منهم إلى الآخر إلا نظرة العدو المتربص لعدوه . الفضيلة تنحصر عندهم فى شيئين : الشجاعة العمياء ، والمراد بها الجراءة على سفك الدماء البريئة لمجرد شهوة الغلبة والحذق في انتزاع الأرواح . والكرم الجاهلى ، والمراد به إطعام الناس أموال الناس بل إطعام الانسان مال نفسه ، أي يأخذونه منه قسراً ليطعموه إياه ضيافة ليقال كرماء مساميح ، كذلك الكرم والشجاعة الموجودين فى الشعر الجاهلى كشعر حاتم وغيره . لامعنى للفضيلة عندهم غير هذين الأمرين . يسخرون من الدين والمتدينين ويسخرون من الأذان وغيره من شعائر الاسلام، فيقول قائلهم متعجباً مستفهماً : من يتزوج بنت المؤذن!؟ فيرد عليه الآخر : يتزوجها مؤذن آخر . عادوا إلى الجاهلية الأولى فى آرائهم وعقائدهم وأفعالهم أو سبقوها كثيراً أو قليلا .

وقد حدث المؤرخون النجديون المطلعون على حالة العصرين ، كابن بشر وابن غنام فى تاريخيهما أن المرأة كانت إذا ما عنست « تأخر زواجها » تطوف بالذكر من النخل وتلتزمه ثم تقول منادية مستغيثة : يا فحل الفحول ، أريد زوجاً قبل الحول . وأنهم كانوا إذا مرض لهم مريض وعز شفاؤه ذبحوا الذبائح من الضأن والمعيز والابل وذكروا أسماء الشياطين والجان عليها ، ولم يذكروا اسم الله ثم يأخذون أطايب لحوم هذه الذبائح وجيدها ، فيضعونها فى ركن

من البيت أو فى فلاة من الفلوات القاصية أو الدانية . ويزعمون أن الجن والشياطين يأتون هذه اللحوم فيأكلونها فيرضون عن المريض وأهله فيدفعون المرض عنه أو يدفع الله عنه لأجلهم ، أو لا أدرى ماذا يقصدون . . وحدثوا أيضاً أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب صاحب الدعوة ، لما أن دعا دعوته وقبل منه من قبل وأصبح مسموع الكلمة عند من اتبعوه ووجدوا فيه المرشد، وأراد قطع الأشجار وهدم القبب المشيدة التى يعظمها الجهال ويعملون لديها الأعمال المنكرة ، عز ما أراد على الناس حتى على الذين قبلوا دعوته ، وتوقعوا منه شراً وخافوا العاقبة فلم يجرؤ منهم أحد أن يقدم على ذلك ، وطلبوا إلى الشيخ أن يقطع تلك الأشجار ويهدم تلك القباب بيده إن رضى ذلك ولم يخف منه شراً ، ففعل ذلك الشيخ وقطع وهدم ، فبات الناس ينتظرون أن يقع به شر وبلاء، وطفقوا يتساءلون عما أصابه . وقد كانت عندهم شجيرة يعتقدون فيها عقائد مضحكة ويفعلون لديها أفعالا منكرة . من ذلك أن المرأة إذا ولدت ولداً ذكراً جاءت تلك الشجيرة وعلقت عليها الخرق . وترى أنها بذلك تدفع عن ولدها الحسد والموت . ولديهم غار يقولون إن رجلا فى سالف الدهر هم أن يعتدى على امرأة لديه فضرعت تلك المرأة المظلومة إلى الله ، فانفلق ذلك الغار لابتلاع الرجل أو لافزاعه . فهم يقدمون لذلك الغار الهدايا من لحوم وخبز زاعمين أن ذلك يعجب الغار وينياله منه شىء . . وهذه العقائد التى كان أهل نجد يدينونها منذ مائتى عام هى موجودة اليوم فى أكثر الأقطار الاسلامية . وما بوابة المتولى ،

والمغاورى ، والجيوشى ، وأمثالها عنا ببعيد . وقد كانوا من الجهة المالية إباحيين بكل ما تتحمل هذه الكلمة من معنى ، فهم لا يتورعون عما قدروا على نهبه من مال ، وقد يرون أخذ الأموال بالقسر من شيم الرجال الشجعان أولى العصبية القوية والماضى القوى الشجاع ، وما كانوا يدعون من ذلك إلا ما أعجزهم لمناعة صاحبه أو لسبب آخر من الأسباب . فلما أن تغلبت هذه الدعوة وتغلب سلطانها على البلاد ، ومنعوا بالقوة والشرع من الاعتداء على الأموال والأنفس سموا ذلك الزمان زمان « الكمام » يريدون أن أفواههم كمت أى منعت من أكل أموال الناس بالإثم والعدوان وأكل الحرام

هكذا كان القوم ، بل كانوا شرا من ذلك . وبعد أن يعرف المعترضون أو المسائلون هذه الحقائق نسائلهم ونقول : أيجوز ترك هؤلاء على ماسمعتم ؟ ألا يجوز ، بل ألا يجب ارغامهم على الدخول تحت علم واحد ، علم من يحمل الناس الفوضويين على التمسك بآداب الشرع والعدل . وألا يجوز ، بل ألا يجب القضاء على عوامل الفوضى والاضطراب التى يمثلها هؤلاء ، بحملهم على الدخول تحت راية جماعة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ ! وألا يجب حمل هؤلاء المتفرقين المتشاكسين على الاجتماع تحت سلطان إمام واحد وزعيم واحد ، ليعز جانبهم وتطيب حالتهم الداخلية والخارجية ، وتزول أسباب الشقاء والتعاسة وليستطاع أخذ الجانى المتعسف بالشدة والقمع ، ويستطاع أيضاً بسط العدل بين الناس لا فرق بين سيد ومسود ؟ !

إن المنطق والعدل والشرع والرحمة بالناس: كل هؤلاء يجيب على هذه الأسئلة بـ. بلى والله يجب ذلك

إن من قال بجواز ترك أعراب نجد على تلك الحال الغابرة إنما يقول بلغة الصراحة بجواز نشر أسباب الفرقة والعدوان، وبجواز خروج الرعاع على ولاة الأمر وتركهم وما يهوون لا سراة لهم ولا راية تجمعهم. وأى أناس هؤلاء؟ وفى أى بلد من بلاد الله عاش الناس فيها كذلك؟ وأى قوم يسعدون بهذه الحالة؟. والعجب أنه لا توجد بلدة من بلاد الله إلا وتطارد أمثال هؤلاء، وتحملهم على الطاعة والاذعان لسلطان الجماعة وتسميهم الخوارج والثوار

إن هنالك قتالا فى الاسلام، بل فى الشرائع كلها الالهية والبشرية يجوز، لا لكفر وخروج من الدين، بل لأسباب أخرى اجتماعية أو أدبية أو مدنية، كالمحافظة على العقيدة مثلا أو الأمن أو الدولة من أسباب الضعف والقلق. فالذين يخرجون على الزعامة وعلى القانون الذى رضيته الأمة أو جمهورها، يقاتلون حفظاً للقانون، والذين يريدون أن ينشؤوا زعامة جديدة غير الزعامة الراهنة يقاتلون حفظاً للزعامة، التى بها يحفظ القانون، الذى به يحفظ النظام، الذى به تحفظ الأرواح والأموال، والذين يقطعون الطرق ويفسدون فى الأرض ويعبثون بالنظم يقاتلون إبقاء على المدنية الهادئة التى لا بد منها للمعيشة الهادئة، التى لا بد منها للسعادة، والذين يبدون آراء غريبة تحدث القلاقل والاضطراب، والذين يتعرضون لعقائد الناس وأديانهم فيحدثون القلاقل يقاتلون أو يمنعون بالقوة..

وإجمالا كل من قام بأعمال من شأنها أن تقلق راحة المدينة الفاضلة ، وتجر إليها البلاء وسفك الدماء ، يقاتلون حتى يرتدعوا ويرجعوا إلى حظيرة النظام والطمأنينة ، الأمرين اللذين لا بد منهما لبقاء سلطان الأمة مهيبا

هـذه حقائق لا ينازع فيها شرعي ولا مدنى . ولقد قاتل أصحاب رسول الله عليه السلام ، على عهد خلافة أبى بكر ، الذين منعوا الزكاة ، وقال الخليفة رضى الله عنه : والله لو منعوني عقالاً لقاتلتهم على منعه . وقد سمى أبو بكر والصحابة القوم الذين منعوا الزكاة مرتدين . وهذا واضح لأن الاسلام ليس هو عبارة عن الصلاة والصيام فحسب ، بل الاسـلام هو دين القوة والنظام والجمـاعة والسيادة المرعية . والذين يأبون دفع الزكاة للخليفة أو صاحب الأمر فى الأمة يسعون فى الواقع إلى تحطيم الوحدة والجماعة والنظام . والذين يمتنعون من دفع الزكاة على الامام يمتنعون عليه أيضاً من الجهاد والدفاع عن الحرم والوطن . وإذا أبت الرعية على الإمام أو الأمير فلا رعية ولا خليفة ولا زعامة أيضاً . وخليق بأن يكون الذين يأبون دفع الزكاة مرتدين لأنهم إذا منعوها فقد عصوا الإمام وخرجوا عليه ، وإذا خرجوا عليه فقد خرجوا على الأسلام وقوانينه التى تؤيد الوحدة والجماعة والنظام . . وقد صح فى الحديث النبوى أن الذى يموت وليس مطيعاً لإمام يموت غير مسلم ويكون مرجعه إلى غضب الله . ومن أدرك سر هذه المعانى الإسلامية السامية ذات المرامى البعيدة القوية لم يسعه إلا الاذعان لها والاعتراف ببراعتها وسموها

بعد ما تقدم تعرف أن النجديين قبل الدعوة كانوا على مبادىء فاسدة كل واحد منها يبيح قتالهم واضطرارهم إلى تركها . فهم خارجون على الزعامة وعلى كل قانون ونظام . وهم متحاربون متشاكسون ، وهم أيضاً تاركو الزكاة والصيام وسائر أركان الإسلام ماخلا القليل . ثم هم بعد هذا جاهلون بالإسلام كل الجهل ، ومن جهلهم وقعوا فى الشرك الشنيع وعظموا الأحجار والأشجار والقبور وأصحاب القبور ، وعظموا الكهانة والتدجيل . والقوم الذين يجمعون هذه الأمور خليق بهم أن يكونوا نهب البؤس والذل والشقاء ، وخليق بالعاقل ألا يحرص على الدفاع عن حياتهم التى تكون بالشكل المتقدم . ويارب عيش أخف منه الحمام

على أن الأقوام الذين نازلهم أنصار هذه الدعوة كانوا هم البادئين بالعدوان عليها ، المتحدين لها ، المؤلبين عليها ، القادحين فيها . وما كان أصحابها إلا دافعين الشر بمثله . ويعرف هذا من تتبع أطوار الحركة . ومن أراد معرفة ذلك جيداً فلينظر معاملة ملك الحجاز الآن جيرانه وكثرة عطفه وحنانه على المسلمين كافة . وهاهو التقى الورع صاحب السعادة السيد فوزان السابق معتمد حكومة هذه الدعوة فى مصر يصلى فى كل المساجد المصرية مع شدة احتياطه لدينه

إذاً هم لا يرون المسلمين غير مسلمين كما يقول المرجفون ، وإذاً هذا الاعتراض أو السؤال لم يكن قائماً على شىء ، ولو ضئيلا ، من الحق

أنصع صفحة فى تاريخ نجد

لاخلاف أن أنصع صفحة فى تاريخ نجد تبدأ منذ مائتى عام تقريباً، أى منذ أن دعا الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى دعوته وبايعه الأمير محمد سعود على المؤازرة ونشر الدعوة بين الناس. فمن ذلك الحين أصبح لنجد شأن يذكر وتاريخ يدرس، وأصبحت تقع فيها أفعال يجدربها التدوين والإشادة. ومن ذلك الحين اتجهت الأبصار مع القلوب تلقاء عاصمة نجد وتلقاء زعامتها وسيادتها، واهتم الناس بذلك وأخذوا يدرسون ويكتبون عنهم. ومن ذلك الحين أخذت السياسة الخارجية تتبدل وتتطور تبعاً لتبدل سياسة نجد وتطورها. ومن ذلك الحين أخذ العالم الخارجى يفد إلى محل الملك فيها راغباً أو راهباً خائفاً أو راجياً، مستفيداً دنيا أو ديناً. ومن ذلك الحين أصبحت حاكمة نفسها حاكمة غيرها، وقد كانت قبل ذلك لاحاكمة ولا محكومة

أما قبل ذلك التاريخ فقد كانت البلاد النجدية فى عزلة تامة عن العالم وكان العالم فى عزلة تامة عنها، بل قد كان يجهلها كل الجهل كما كانت تجهله كذلك أيضاً، وما كانت قبل ذلك التاريخ سوى قسم قاحل من بلاد العرب المجدبة. وما كان أهلها سوى أعراب وزراع يجهلون طرق المعيشة الصحيحة كل الجهل، ويجهلون الدين الصحيح كذلك، وما كان العالم يحسب لهم حساباً أو يقيم لهم وزناً

ومن الانصاف للحقيقة والتاريخ والقراء أن نذكر هنا ظاهرة

عجيبة فى بادىء النظر ولـكن لا عجب فيها عند من عرف السبب جيداً. هذه الظاهرة هى أن بلاد نجد كلها منذ أن قبلت الاسلام منذ ثلاثة عشر قرناً إلى عهد هذه الدعوة لم تظفر بعالم واحد من العلماء المنتجين ذوى الأثر فى العلوم لا الدينية ولا الأدبية ، فلا نستطيع أن نعرف مؤلفاً واحداً فى علم من العلوم ، أو عالما واحداً فى فن من الفنون أنجبته هذه البلاد قبل ظهور هذه الدعوة

وليس معنى هذا أننى أقول على سبيل اليقين بأنه لم يكن فيها عالم قط من يوم أن قبلت الاسلام إلى عهد الدعوة . كلا . لا أستطيع أن أدفع هذا الحكم دفعاً ، ولـكن الذى أستطيع أن أقوله هو أننا لم نعرف فيها عالماً واحداً ، لا أنه لم يوجد فيها عالم واحد . وهذا على كل حال برهان ظاهر يشهد شهادة حق بإجداب تلك البلاد طوال تلك العهود من العلم والعلماء . وهذه الظاهرة ولا ريب غريبة فى بادىء النظر وغريب من بلد فى وسط البلاد العربية مصدر الإسلام ووطنه الراهن ألا يظفر بعالم واحد يخدم العلم والأدب فى مدى أحد عشر قرناً . ولعلنا لا نستطيع ان نعرف بلداً إسلامياً كبلاد نجد خلا خلوا تاما من العلماء مدى قرون طويلة كما خلت بلاد نجد . أترى هذه الظاهرة ناتجة من أمر يرجع إلى استعداد أهل البلاد الفطرى ؟ كلا ليس الأمر هو هذا ، فإن تلك البلاد من أخصب البلاد الاسلامية ذكاء وتوقد أذهان . وإذن فما سبب هذه الظاهرة ؟ ؟ إن سببها واضح وهو أن البلاد كانت فى مدى تلك القرون الطويلة تعيش عيشة الاعراب والزراع والرعاة ، وما كان الخلفاء

ولا الأمراء يهبونهم شيئاً من عنايتهم وذلك لجدب بلادهم وفقرها الطبعى . وهم لم يكن لهم زعيم يجتمعون عليه فيسمو بهم إلى مرافى العز والعظمة والعمران . فلم يكن للعلم والعلماء نصير ولا طالب أو راغب ، لأن الرغبة فى العلوم والثقافة والطلب لهما لا تكون إلا فى بلاد ذات زعامة وذات غنى . الزعامة تنصر العلم والغنى يسهل على العلماء الانتاج ويخلق فيهم التنافس . فلما أن أراد الله أن ينقذ هذه البلاد وأن يظهر سره فيها ورحمته الشاملة منّ عليها بهذه الدعوة الحارة ، ومنّ على الدعوة بذلك الناصر المظفر القوى ، وخدمها بمؤازرة السياسة ، فازدهرت العلوم ورغب فيها وكثر المؤلفون والمنتجون . فوضع التاريخ هذه البلاد أخيراً فى صف البلاد التى خدمت العلوم والتأليف والثقافة ، وعرف الناس هذه البلاد بالمؤلفين والعلماء . وعلى هذا لا نبعد ولا نخطىء إذا ما قلنا : إنه لم يمر على هذه البلاد كلها فى تاريخها كله عصر هو أفضل من عصرها الأخير ، أى منذ أن نشأت فيها هذه الدعوة ، ونصرها السيف

لاشك فى هذا كله ثم لاشك فى أن أنصع مافى هذه الصفحة من تاريخها هو عهدها الحاضر . فقد نظم فيه مليكها صلاتها الخارجية وحسن شؤونها الداخلية، وقربها إلى الناس وقرب الناس إليها ، ووضعها فى موضع دولى تحسدها عليه دول كثيرة ، وجعل لها من العلاقات بالدول العظمى مالم يكن لها فى غابر تاريخها قط ، وما لم يطمع أهلها فيه

البتة ، وجد كل الجد فى إسعادها وراحتها وفى تثقيفها وتعليمها . أوجد فيها المستشفيات والأطباء والمدارس والعلماء ، وجلب إليها من مخترعات العلم ما لا ينافى الدين والأخلاق الفاضلة ، فأوجد التلغراف والتليفون والسيارات وبعض الطيارات بقدر ما تسمح به ثروة البلاد ، وجد الجد كله فى استخراج كنوز الأرض البكر وخيراتها ، فأعطى شركات التعدين واستنباط البترول الامتيازات وبعث البعوث العلمية إلى مختلف الجهات ، وحسنت حالة البلاد فاعترفت كل الدول العظمى بها وبسيادتها ، وأوجدت لها المفوضيات فى الخارج كما أوجد الخارج فيها المفوضيات ، وعقدت المعاهدات التجارية الرابحة . إلى غير ذلك من الاصلاحات والتنظيمات التى هى غاية ما يتمنى المتمنون وغاية ما يمكن أن يكون ، وحسن مركزها الأدبى ونالت من مودة الصدور وتعظيمها أفضلها ، وأحلها المسلمون من قلوبهم محل العقيدة ، وعلقوا بها آمالهم وفهموها وقدروها قدرها ، ونالت من الدعاية الخارجية المتطوعة ما نفعها وما سوف ينفعها .

كان ذلك كله بفضل جلالة الملك عبد العزيز وفضل سياسته وما خصه الله به من الجاذبية وشدة التأثير ، إلى ما عنده من صراحة اعترف بها كل الناس ، وقوة دين شهد بها العلماء عن علم وآمن بها الجهال عن تقليد . فليذكره المسلمون كلهم بالخير وبالدعاء المستجاب

نتائج الحركة فى الخارج

أحدثت هذه الحركة ، من يوم نشأتها إلى يومنا هذا ، فى الخارج أحسن النتائج . فقد اجتهدت فى إخراج المؤلفات القيمة وطبعها ولا سيما فى عهد الملك عبد العزيز ، ومن هذه الكتب كتب الامامين البارعين ابن تيمية وابن القيم وكتب الشيخ محمد بن عبد الوهاب صاحب الدعوة ، وأوصلت هذه الكتب إلى أيدى الناس وفرق الكثير منها مجاناً ، فقرأها الناس فانتفعوا بها وحركت عندهم فكرة طيبة وأفهمتهم من أسرار الدين ما كانوا يجهلون ، وكرهت إليهم الأوهام السخيفة وخدمت الآراء السلفية أفضل خدمة

وفيما أعتقد أن ما يشاهد من تطور طيب واستنارة ظاهرة فى عقائد المسلمين اليوم وفى آرائهم هو ناشىء عن هذه الحركة وعن مؤلفاتها الطيبة التى تنشرها الحين بعد الحين ، ومن العجب أنها نفعت أعداءها أنفسهم ، فالذى يكتب في الرد عليها يكتب ما يكتب وهو متأثر كل التأثر بالدعوة ومداخله من أفكارها مالا يستطيع جحده . وهذا أعجب مافى الحق ، راده متأثر به أو مقتنع به فى الباطن

أجل . نفعت هذه الدعوة نفعاً بارزاً ، وأحدثت فى الخارج نتائج ذات قيمة وذات معنى جليل . فقد كان المسلمون فى كل مكان كالنجديين قبل الدعوة يرون فى الدين والعقائد آراء فى منتهى الفظاعة والطرافة . تفننوا تفنناً غريباً فى إحداث البدع المضحكة التى لايزال صداها يرن

فى جواء العالم الإسلامى، والتى كان لها التأثير الأسوأ فى إضعاف العقلية الإسلامية ووضعها فى موضع وضيع جداً بين عقول العالم الحديث، والتى لايزال يعير بها الإسلام وأهله ويقال فى الإسلام من أجلها الأقوال التى لاتليق بقداسته. ويكفى هنا أن تعلم أنه كان يرمى بالإلحاد والزندقة والخروج على الإسلام ومن الإسلام من قال، ولو مجمجماً، ولو بشىء من الحذر والإخفاء: إن الأموات لاينفعون ولا يضرون، وإنهم لايجيبون دعوة من دعاهم وإن الله وحده هو المرغوب إليه بحق والمدعو بحق. أو من قال: إنه ليس على المسلم أن يتقبل فى عقيدته ودينه كل قول ورأى يكتب فى «الحواشى» و «التقريرات» و « الشروح » . . وإن المسلم الذى يحاول فهم القرآن وفهم سنة رسول الله كان يرمى بسوء العقيدة وبالضغينة على الإسلام وعلماء الإسلام

لقد كانت العقلية الإسلامية قبل هذه الدعوة عقلية عجيبة حقاً، ضيقة حقاً، وكانت عقيدة جمهور المسلمين قبل الدعوة عقيدة مركبة من أخلاط العقائد والخرافات تركيباً يبعد على العقل السليم الناضج تصوره، ويعسر على الخيال الفنان البارع فى صنع العقائد الطريفة أن يركبه. كانت القبور تحج من كل فج، وكانت تذرف فوق ترابها الدموع السخينة وتراق على جوانبها دماء الهدايا والنذور من الأنعام وغير الأنعام، وكانت تنتثر حواليها الشكاوى الفازعة من أعماق القلوب الموجعة، وكان المشايخ مشايخ الطرق يعبدون فى الأرض دون الله، وكان المسمون بالعلماء والأتقياء يسيطرون على

عقائد الجماهير سيطرة الغرام على عواطف المحبين، وكان من صنع منه الفقر أو الضلال أو انحراف المزاج أو «الهستريا» مجذوباً يمشى فى السبل عارياً حافياً يسيل لعابه على صدره الأشعر المقنع بالأقذار والأدواء: كان مثل هذا المخلوق يتخذ منه ولى من أولياء الله المقربين الذين يعلمون الغيب ويصرفون الكون ويملكون الموت والحياة أحياناً فيحيون ويميتون، فكان يلثم اليدين وترجى منه البركات وتطلب الدعوات وتذال بين يديه العبرات، وكانت الأعمال الاسلامية الظاهرية مضيعة ضياعاً يشبه الترك. ذهبت الحماسة الدينية من النفوس، وفقدت الغيرة على الدين، وعز الغاضب للفضيلة والخلق والأدب، فانتهكت المحرمات وأعلن الفسوق وركض فيه الصغير والكبير جهاراً بلا حذر ولا حيطة، وذهب ذاك الذى يقول للفاسق اتق الله وللجائر اعدل.. وذهب من يحمل على الطاغى الباغى سيفاً أو عصاً أو يداً مبسوطة فيها لهب من حرارة الايمان وصرامة المؤمن. فاستبد الأقوياء بالضعفاء وملك الأغنياء الفقراء وافترس الذئب الحمل. وكان غريباً حقاً ذلك الذى يفزع إلى العدالة والانصاف إذا مامسه الظلم والجور، وأغرب منه ذلك الذى يحاول أن يرد ظالماً عن ظلمه وجاهلا عن جهله

كان هذا بعض شأن المسلمين قبل هذه الدعوة المباركة فتخاذلت منهم القوى الروحية والمعنوية والمادية أيضاً، وأضمر كل إنسان منهم الحقد والضغينة لأخيه. فشعرت بذلك المسيحية والمسيحيون وشعر به الغرب، فهاجمت النصرانية الاسلام فى داره، وزحف الغرب

على الشرق للغزو والانتقام ، فكان ما كان مما يرسف فى أثقاله وأنكاله إلى اليوم المسلمون والإسلام ، وجر ما جر على الشرق من الويل والتخريب والاستعباد

كان هـذا بعض ما كان . فلما أن نشأت هذه الدعوة فى تلك الشخصية القوية المؤثرة ، ونصرها ذلك الحسام المظفر المخضب بالدماء القذرة ، وضعت أمام المسلمين عموماً والعرب خصوصاً مثلا بارعة شائقة من الثورة على الظلم والظالمين ، ومن الغضب للحق الذى لا يعرف إلا الله والذى هز العروش فتطايرت شرفاتها ، ومثلا من الشجاعة التى تعلم أن الدائرات تدور والتى عدلت ذا الخد المصعر . ووضعت لهم أيضاً مثلا بارعة فى الغيرة على الدين والحماسة له والاندفاع وراء الفضيلة والأدب ، ومثلا من التواضع والعدل والمساواة والديمقراطية التى ظهر بها زعماء الدعوة وأمراؤها ، ومثلا من تطهير الدين من الدجل والتخريف ، ومثلا من الدين القوى الحار . فأيقظت فى المسلمين العقول الناعسة ونبهت منهم الهمم ، وعرفتهم أن هنالك ديناً لله أضيع وهجر ، وأن هنالك نفوساً حية قتلها الظلم والعدوان ، وأن ثمت شيئاً اسمه العدالة ، وأن للحاكم حداً لابد أن يقف عنده لا يتجاوزه وإلا فالحسام فى يد المؤمن ، وعرفتهم أن الناس أمام الله سواء لا فرق بينهم إلا بالميزات الشخصية المباحة لكل أحد ، وأن الله وحده هو المعبود المرهوب المرغوب إليه : عرفت الناس هذه الحقائق السماوية العليا ولفتتهم إليها بقوة وروعة فظهرت هى فى العالم ظهوراً لا يستطيع إخفاءه شىء ، فأكبرها الناس وغلا

كثير منهم فى تقديرها، حتى لقد ادعى بعض العلماء الفرنسيين المستشرقين أن صاحب هذه الدعوة كان نبياً. وذلك لأن هؤلاء الغالطين يرون النبي هو ذو الأثر البارز فى الإصلاح والتهذيب وحمل الناس على الدين والاستقامة. وما كان صاحب هذه الدعوة سوى عالم مصلح من علماء المسلمين المصلحين، وما كان إلا حسنة من حسنات محمد عليه الصلاة والسلام. وقد جاء فى حديث نبوى أنه قال عليه السلام «علماء أمتى كأنبياء بنى اسرائيل» والمراد أنهم يحدثون من الإصلاح الفعلى مثل ما يحدثه الأنبياء السالفون

إذن لا نكذب إذا ماقلنا إن هذه الدعوة هى أول من وضع الحجر الأول فى أساس النهضة الإسلامية العربية الحديثة، وهى أول من لفت المسلمين إلى الدين الصحيح وإلى احترام العقول والاستعانة بها فى فهم دين الله، وهى أول ثائر على الظلم والظالمين، وهى أول من عرف الناس كتب السلف وحببها إليهم. ولقد كان الناس قبل ذلك يعاقبون ويكفرون من يقرؤون كتب السلف؛ وكانت كتب ابن تيمية وابن القيم السوريين ممنوعة التداول، وكانت كتبهما شراً عند الناس من كتب الاشتراكية المسرفة. وابن تيمية وابن القيم لو ادعى مدع بأنه لم يأت فى القرون الوسطى كلها من يشبههما فى الذكاء وغزارة العلم والصلاح والغيرة على الدين والفضيلة، لما وجد من يقول له إنك ظلمت الحقيقة وافتريت الكذب، إلا أن يكون ذا ضغن على الرجلين أو جهل بهما. والمضطغن والجاهل يقيسان الأشياء بمقاسهما هما لا بمقاس الأشياء هى

ويقدران للرجال شخصية من ذاتهما هما لا من ذات الرجال هم

وما كان يعلم أولئك الذين حاربوا صاحب الدعوة الأول وناصرها أنهما حينما بايع الثانى الأول على النصرة إنما تبايعا على وضع أساس النهضة الدينية الكبرى ، التى قدر لكثير من العرب والمسلمين أن ينضووا تحت لوائها والتى سوف ينضوى تحت لوائها كل العرب والمسلمين فى القريب الآزف إن شاء الله . . ومن ذا كان يظن أن الدولة العثمانية التى كشفت عن ساقها فى حرب هذه الدعوة سوف تفنى ، وأن هذه الدعوة سوف يقدر لها الخلود والبقاء ، وسوف تظل تتزايد وتنتشر سياسياً ودينياً حتى يتجه العالم الإسلامى إليها أكثر من اتجاهه إلى الدولة العثمانية مستقر الخلافة إذ ذاك ، وأنها سوف تنازلها الخطوب والشدائد والعواصف الهوجاء أزماناً طويلة فتخرج من بينها مظفرة عزيزة الجانب . إنى أقول ، وأعوذ بالله من التعصب والهوى : إنه لولا نشأة هذه الدعوة السلفية والنهضة النجدية منذ قرنين فى قلب جزيرة العرب لظلت الدعوة الإسلامية الصحيحة مجهولة غير معروفة ، وإنها لو عرفت وأتيح لأفذاذ من الرجال معرفتها لما قدر لها كل هذا الانتشار والقبول الذى نراه اليوم ماثلا فى كل موضع

قد يحسب فريق من الناس أن هذه الفكرة الإسلامية السلفية المشهودة اليوم إنما منشؤها النهضة الأوروبية الحديثة التى رجت الأفكار والعقائد رجاً عنيفاً ، أو قد تكون هى العامل الأول فى نشأتها . وهؤلاء ولا ريب غالطون كل الغلط مخطؤون الحقيقة كل

الخطأ . . ولو أنه لم يكن سوى النهضة الأوروبية الحديثة لكان الناس أوربيين مندفعين وراء نهضة أوروبا لا يعرفون غيرها ، أو مسلمين على الطريقة الأولى المخرفة المبتدعة ، ولكانت الدعوة السلفية هى الحلقة المفقودة ، ولما استطاع أن يعرفها لا المندفعون وراء نهضة أوروبا ولا المسلمون على الطريقة المخرفة . وعندي أن هذه الدعوة هى المهرب لذوى الفكر السليمة النافرة من حمى الخرافات الصالب وأنها هى البرزخ بين الكفر والتخريف . وهكذ الإيمان يكون وسطاً أبداً

المأمول

والمأمول أن هذه الدعوة سوف يزداد ذيوعها وانتشارها ، وسوف تخطو إلى الإمام سياسياً ودينياً خطوات سريعة

أما الدين فنرى أن المسلمين صائرون عن قريب أو بعيد إليها قابلون لها ولا نرى أن المسلمين سيظلون متمسكين بالخزعبلات الأثيمة الهوجاء ، ولن يظلوا البتة يدعون الأموات ويرون دعاءهم ديناً يثاب عليه ولن يظلوا يأبون الرجوع إلى الله وإلى كتابه وإلى سنة رسوله

كان يحول بين الناس وبين هذه الدعوة أهواء السياسة ولؤم السياسة . وكان يبعدهم عنها جهلهم بها وبعدها هى عنهم . أما اليوم فقد اقتربت إليهم واقتربوا هم إليها ، وعرفوها معرفة علم وبرهان ، أو أوشكوا أن يعرفوها معرفة علم وبرهان . والسياسة اليوم لا تستطيع أن تحول بينها وبين الناس ولا تستطيع أن تخفيها وأن تلصق بها من التهم والأكاذيب

ما كانت تفعله يوم أن نشأت . فالأسباب اليوم غير الأسباب ، والغايات غير الغايات . ونحمد الله أن الناس ، حتى السذج منهم ، صاروا يتهمون السياسة فيما تقول ، وصاروا لا يعرفون السياسة إلا أنها الفاجرة التى لا تؤتمن والكافرة التى لا تؤمن والكاذبة التى لا تصدق ، وعرفوا أنها هى العدو الأكبر للحق ، وأن لها الأثر الذى لا ينكر فى طمس الحقائق ونشر ضدها ، وصاروا لا يذهبون إلا إلى الجانب الذى تجانبه . فالدعوة الآن لا ينقصها سوى تعريفها للناس ، وبعد هذا يكتب لها الرواج والقبول الواسع فى الأرض .

وأما سياسياً فمخايل الأمر تنبئ أن مصايرها إلى الزيادة المطردة والتقدم الباهر والعناصر التى لابد منها لسيادة الأمة ولأخذها بأطراف المجد نجرأ أن نقول إنها قد اجتمعت لهذه الدولة اجتماعاً لا نقول إنه بشكل يدركه كل أحد ، وإنما نقول إنها اجتمعت اجتماعاً يرجى جداً أن يظل يتزايد وينمو حتى يصير بشكل يدركه كل أحد ويتفاءل له كل أحد بالبقاء والاتساع المكفول . والأمة إذا ارتقت زعامتها وسلمت من الضعف ارتقت هى ولا بد . وزعامة هذه الدولة فى غاية الرقى والنضوج . والأمة إذا ما كانت قوية الروحية والمعنوية سليمتهما احتاجت فقط إلى ربان ماهر تضع فى يديه دفة السفينة فيمخر بها عباب الصعوبات والأخطار إلى ماتشاء ويشاء من العلو والعظمة . ودفة السفينة اليوم فى يد ربان إن لم يسلم الناس أنه أمهر ربان فإنهم يسلمون أنه من أمهر « الربانين » . والشعب العربى شعب تليد السيادة وافرها

طموح إليها ذكى الفؤاد جيد الفكر سريع إلى اكتساب أسباب العزة والمجد . بل نستطيع أن نقول إنه كثير التنافس والحسد على أسباب العلو . والحسد إن ذم فى كل شىء فإنه لن يذم هنا ، بل هو من أعظم دواعى الصعود فى سماوات المجد . . وما كان يؤخر الشعب العربى سوى ضعف القيادة وسوى التنافس على السيادة . ثم التفرق وهذا هو البلاء الأحمر وهو ميكروب الأمة العربية الخبيث وشيطانها التليذ العنيد الفاجر . ولهذا كان القرآن عز العرب يمتن عليهم كثيراً فى أن ألف الله بين قلوبهم وجمعهم على عبده ونبيه . ويشتد جداً فى ذم الفرقة ووصف أدوائها . وكان التفرق يقرن بالكفر والخروج من الاسلام، وذلك لما كان له عند العرب من أخطار وويلات سهلت لأعدائهم أن ينالوا منهم مالا يستطيعون بعضه لولا الفرقة . وهذه الأسباب أسباب إضعاف العرب قد زالت وقطع الله دابرها بسيف شرعه وسيف ملك العرب وحكمته، فلن يتوقع إذن لهم سوى التقدم والسيادة المرموقة

وها هنا ظاهرة فى العرب قد لا تكون غريبة ، وإن كانت فى غيرهم غريبة حقاً . ذلك أن المستقرأ أن العرب لا يسودون إلا بالدين ولا يكونون دولة قوية ناهضة إلا إذا تمسكوا بالدين ، وهذا أمر مستقرأ لا يختلف فيه ولا يكذب. وهذه الظاهرة يستطاع تفسيرها على ضوء الأبحاث النفسية الاجتماعية ويستطاع بسهولة معرفة سرها . وأذكر أن « ابن خلدون » ذكر هذه الظاهرة فى مقدمته ولا أذكر ماذا قال فى تفسيرها . أما تفسيرها عندى فهو : أن العرب جبلت على

الحرية المطلقة الموسعة جداً، الحرية التى لا تقبل قيداً ولا قانوناً ولا نظاماً ولا تذعن لشىء من ذلك ، وهذا الخلق راجع إلى طبيعة بلادهم وعيشتهم البسيطة وقلة أموالهم وشئونهم فى الحياة . فهم لبعدهم عن الاذعان للقوانين والقيود ، والدنيا كلها قيود وقوانين ، لايجتمعون ، إذ الاجتماع قيد شديد ، ولا يرضون لزعيم زعامة ولا لسيد سيادة ولا يبغون بحياة الحرية بأوسع معانيها بديلا . فلا جرم أن يتنازعوا السيادة التى تكفل لهم ذلك الأمر المحبوب لدى أنفسهم الذى جبلوا عليه وأعنى به الحرية المطلقة المتصرفة فى القريب وفى البعيد وفي كل شىء فى الوجود . واذا ما تجاذبوا حبل السيادة وأبى كل واحد منهم أن يضعه فى يد خصمه أو نده ، فلا جرم أن يقضوا حياتهم القصيرة كلها فى الحروب والنضال ، ولا جرم أن يضعفوا كلهم وأن يشغلوا عن أسباب النهوض والزعامة ، فلا بد أن يكونوا غير قادرين على دفع عدوان المعتدى ورجع حملات الغازى الطامع مكسورة مدحورة . بل لابد أن يفتحوا له الأبواب وأن يدعوه ويقدموا له البلاد هدية وذلك للنكاية بأبناء وطنهم وأبناء أعمامهم الخصوم ، أو استعانة بهم على الأقربين المنافسين ، فيغزوهم الطامع إن كان فيهم مطمع ويسعى فى إضعافهم وتقليم أظفارهم إن كان يخشى منهم بأساً ويهملهم إهمالا باتاً ، إن لم يكن هذا ولا ذاك ، إن لم يكن خوف ولا طمع . فيحوز السيادة من يحوزها ويجمع أشتات المجد من يجمعها ، وهم سادرون فى هذه الحالة المنكرة الأليمة . فمتى يسودون ومتى يكونون أمة ودولة ؟ !

أما إذا قبلوا الإيمان وأشرقت شمسه فى قلوبهم الصحراوية ببساطة وسذاجة، وأذابت منها تلك النعرات الأثيمة، وطهرتها من تلك الأمراض العنيفة ، وعرفتهم أن السيادة ليست ملكا لأحد منهم لا لفلان ولا لفلان ولا لأحد من أهل الأرض وإنما هى لله رب العالمين ثم لدينه وللمؤمنين به اجمعين ، وأن المؤمنين بدينه تعالى سواسية ، لا فضل لأحد على أحد إلا بقدر صلاحه وطاعته لربه وسمو أخلاقه على المعايب والنقيصات . وأما إذا علموا أن السيادة الحقة لا توجد إلا فى السماء عند رب العالمين ادخرها لمن أطاعه وسما إليه بنفسه عن أمراض الأرض وأهواء الأرض وأدواء أهلها . وأما إذا راضهم الإيمان القوى فعلمهم النظام وعلمهم الاجتماع وأسباب التعاون والتعاضد والإذعان لزعيم الوحدة والجماعة : أما إذا ما كانوا كذلك فلماذا لا يكونون أمة منظمة ذات سيادة وسلطان مهيب ، وهم كرماء شجعان مقاديم صرحاء أولو أنوف حمية ، وأولو أعنة فى الخيرات سهلة ، وهم أذكياء فطناء يحذقون سياسة الدولة وقيادة الجيوش !!؟ إنهم إذا كانوا كذلك فلابد من سيادتهم ولا بد من علوهم على المعتدين

والعرب إذا آمنوا بالدين أخلصوا له وقبلوه بقوة فائقة وحرارة وصرامة . ولهذا أسباب نفسية ظاهرة . هى أن العرب كما قلنا يعشقون الحرية والعزة عشق هيام ، والدين مبناه على الحرية والعزة ، فالناس عند الله سواء فهم أحرار كلهم وهم أعزة ، يكف اليد الظالمة من أن تمتد إلى أحد بسوء أو أذاة ، وإلاّ فالنار وراءها وغضب المؤمنين قبل ذلك . فلماذا

لا يخلصون للدين و لماذا لا يفنون به ويقبلون إليه إقبال العائذ المستغيث؟!

ولقد وصل بى التفكير إلى هذه النتيجة وهى :

إجمع بين العرب والدين الخالص القوى الملامس للعواطف والقلوب ، ثم ارم بهم ما أردت فإنك لن تخيب ، وادفع بهم ما رهبت فإنك لن تندم ، ثم اصعد بهم إلى أسمى ما تراه وما لا تراه من المجد وخيال المجد فإنك بالغ ذلك لا لا غباً ولا مقصراً

وإلى هذه النتيجة أيضا :

إن العرب لا يسودون بغير الدين ، ولا يجتمعون إلا على الدين ولا يخضعون خضوعاً تاماً إلا لسلطان مزج بالدين مزجاً تاماً

لها .. وعليها

الحكومة السعودية تضع يديها اليوم على أوتار قلوب المسلمين فى أنحاء المعمورة ، وتتبوأ من أنفسهم وعقائدهم متبوأ لا يظفر به غيرها . ذلك أنها هى التى تضع يديها على المقدسات الإسلامية محط نخر المسلمين ومطلع شمس دينهم . فتحت يديها تلك البلاد التى بزغ منها نور الإسلام وسرى فى الخافقين مسرى الأثير ، والتى نبغ بين صخورها المنقذ الأكبر عليه الصلاة والسلام ، والخلفاء الفاتحون الذين بيضوا وجه التاريخ بعد أن سوده البشر ، وتحت يديها تلك البلاد التى ترعرع فوق حصبائها أولئك الأبطال الذين وقفوا من تاريخ البشر ومصاير البشر موقف المسيطر المسطر حيناً من الدهر ، وتحت يديها قبلة المسلمين كافة ومشاعر حجهم

ركن الإسلام الأكبر ، وتلك البقعة المقدسة التى يفرض على جمهور كبير من سائر المسلمين أن يجتمعوا فيها كل عام متشابهى الزى والمظهر والغاية والحاجة. ثم هى بعد ذلك الدولة الوحيدة التى تحكم القرآن وتحكم بالقرآن فى كل ما يتناول الفرد والجماعة ، وهى الدولة التي تنفى عن الإسلام البدع والخرافات والجهالات الفاضحة، وترى الناس صوراً صحيحة بريئة من صور الإسلام قبل تلويثه بما نراه اليوم ، وا أسفاه ، بارزاً فى أعمال المسلمين بلا استثناء . وهى بعد ما تقدم الدولة العربية الفتية ذات الاستقلال التام المطلق ، فلا يوجد لأجنبي فيها سلطة ما ، ولا يوجد فيها أجنبي أيضاً ، بل لا يوجد إنسان واحد غير مسلم فيها ما خلا القناصل فى جدة

فهى إذن الدولة التى تحتل المركز الممتاز بين المسلمين ، والتى ينظر إليها المسلمون النظرة الخاصة ، والتى لها من الحقوق فى أعناق المسلمين ما ليس لغيرها ، وعليها من الحقوق للمسلمين ما ليس على سواها لأجل الأمور التى امتازت بها

أما حقوقها هى على المسلمين فهى :

أولا — يجب أن يتخذوها لهم الأستاذ الروحى الأعلى ، والمرشد الدينى العام . يضعون بين يديها الزعامة الدينيـة الكبرى ويسألونها رأيها فيما اختلفوا فيه من أمور دينهم وروحانيته ويرجعون إليها فيه . وذلك للاعتبارات الآنفة الذكر التى امتازت بها لوضعها الطبعى وموضعها الأدبى . وليس معنى هذا أن يقلدوها التقليد المطلق الأعمى

وأن يقتلوا تفكيرهم وعقولهم بين يديها . كلا . لست أعنى هذا ، وهى نفسها لاترضى هذا الوضع وتراه مخالفاً لروح الإسلام وما أطبق عليه المسلمون ، فلا كهنوت فى الإسلام . وإنما أعنى أن يسترشدوها فيما اختلفوا فيه وأن يستعينوا برأيها كما يكون التلميذ مع الأستاذ والطالب أمام معلمه ، فإن المرجو المفروض فيها أن تكون ذات الرأى الصائب والحكم النزيه ، وذلك لسلامة طبائع أهلها وبعدهم عن الفتن ومظاهر الفوضى والاباحية الدينية التى لاتأمن العثار والزلل . وعلى هذا المعنى يجب ، أو يستحسن جداً ، أن يبعث المسلمون بطوائف من أبنائهم الذين يرغبون فى تعليمهم العلوم الدينية والأدبية ، ليتلقوا ما يمكن تلقيه هناك ، وليكتسبوا حظاً كبيراً من أخلاقهم وعاداتهم التي هى ولا شك أقرب الأخلاق والعادات إلى الفطرة الصافية والعادات الإسلامية الأولى ، وذلك لأسباب ذات عدد ليست خفية . ولا ريب أن فى هذا فوائد كثيرة خاصة وعامة : فوائد لأولئك المبعوثين ترجع إلى أنفسهم وإلى أخلاقهم وأوطانهم ، وفوائد للحجاز وحكومته وللإسلام نفسه . وقد آن الأوان الذي يجب على المسلمين فيه أن يتعارفوا وأن يهجروا التهاجر ويجتنبوا التجافى

والأمل أن يحدث في الحجاز نهضة علمية مباركة يستفيد منها قاصدوه . وقد بدت بوادر النهضة فى الأفق بشكل يؤكد ذلك الأمل ويصيره أمل عالم لا أمل شاعر . وقد أنشىء فى مكة المكرمة أخيراً مدرسة دار الحديث . وظنى الخاص بهذه المدرسة أن تكون ذات

أثر سوف يذكر ، وأن تكون ذات نتائج طيبة . فإنى أحسب المدرسة قد وضعت على أساس متين قوى يكفل لها الانتشار والبقاء والانتاج . والعوامل التى تعمل حواليها والتى تعمل فيها نفسها عوامل تحمل على لتفاؤل المؤسس على الواقع . . فإن مديرها وصاحب الفكرة فى إنشائها طبع على خلقين أنا أول من يحسده عليهما وأول من يعدهما عنوان النجاح فى هذه الدنيا . هذان الخلقان هما الصلاح ونقاء الباطن من الخبث والأدواء الأخر التى ابتلى بها الرجال من قديم الزمان . وهذان الخلقان لو عملا فى قلب أغلق على الشر لنجحا فى عملهما نجاحاً مذكوراً . وداء لرجال الوحيد قديماً وحديثاً هو فقدانهم هذين الخلقين . فإن قلباً يحمل الخبث والحقد لا يرجى منه ولا من حامله خير وإن وهب من الذكاء والثقافة غاية ما يطمح إليه الخيال الطموح . والحقد إذا جاور أخلاق الخير قلبها أخلاق شر وصنعها مصانع شر . فالذكاء والعلم والدهاء : هذه الأمور الثلاثة إذا كانت فى قلب خبيث كانت عوناً لهذا القلب الخبيث على الاجرام المثقف الذكى . وشر الإجرام هو الاجرام الذكى المثقف . وإجرام واحد ذكى مثقف فى استطاعته أن يعمل من الفساد مالا يستطيع أن يعمله المجرمون كلهم . ولهذا فإننى لا أخاف على هذه المدرسة وغيرها من مظاهر الإصلاح والرقى إلا من الإجرام المثقف أو نصف المثقف أو الاجرام الذى يحمل ألسنة المثقفين المجرمين . ولو أن الأشياء تؤخذ بنتائجها لكان

القلب المتعلم الذى يحمل الحقد والخبث أولى بالاعدام وبقطع الاطراف من الجاهل المرتكب جريمة القتل والارهاب .. ومن ثم فان أفضل وسيلة تكون لحفظ هذه المدرسة وحفظ نموها هى اتقاء هؤلاء الشياطين الذين يحملون قلوباً تحمل الغيرة والحقد وينطقون بألسنة الأنبياء والملائكة . وعلى الذين يعجبهم نهوض هذه البلاد المقدسة أن يكونوا لهذه المدرسة ولغيرها من أسباب الإصلاح حمى وغنى

ثانياً - يجب أن يعتبر المسلمون هذه الدولة وبلادها وطنهم العام المقدس لا يرضون بأن يصيبها حيف ما أو أذى ما . يقومون فى وجه كل من اراد بها سوءاً كدأبهم لو حصل شىء مثل ذلك لوطنهم الواقعى ويثورون فى وجه كل من قدح فيها أو قدح فى حكومتها إذا كان المراد من القدح التشفى والغرض الشخصى أو أى غرض ما لم يكن حسناً ولم يكن الغرض منه النصيحة والارشاد ، ويدفعون عنها أكثر من دفع اليهودى عن بيت المقدس والمسيحى عن كنيسة روما العليا . فاذا ما أصاب هذه الدولة أو الأمة عدوان ما أو ضيق أو أذى بلسان أو قلم أحس كل مسلم أن ذلك العدوان أو الضيق أو الأذى قد أصاب وطنه المقدس وأصاب دينه وأصاب شرف آبائه وقدسهم الموروث فهاج وسعى جهده للدفاع والذياد . . ومن لم يفعل ذلك فما هو بمسلم حقاً . وليس هو من الذين يغاوون على قدس الاسلام وعلى شرف الآباء الذاهبين الأولين

ثالثاً - يجب أن يكون كل مسلم رسول دعاية متطوعاً لهذه الدولة

وللاقبال عليها، فيدعو إلى الحج وإلى زيارة تلك الآثار المقدسة والمعالم الطاهرة وإلى التطواف فى أرجاء المملكة ، ويجب أن يكون الغرض من ذلك إنعاشها وزيادة ثروتها وتحسين حالة أهليها الاقتصادية ، ويدعو أولئك الذين يتدفقون على مدن أوروبا ويمطرونها بالثروات الطائلة بلا حساب ولاشح إلى زيارة هذه البلاد ذات التاريخ القديم البارع، ويعرف أولئك الكرماء على أوروبا أنه لو كان يباح للأوربيين زيارة مكة والمدينة وسائر الآثار هنالك لتدفقوا إليها من كل فجاج أوروبا ، ويعرفهم أنه من المخزى لهم عند قومهم وعند الأوربيين الذين يتقون غضبهم وانتقادهم أن يحج الواحد منهم إلى إحدى المدن الأوروبية عشرات المرات ويهلك فيها ألوف الجنيهات بسخاء وإسراف ، ثم يموت قبل أن يرى الحجاز مرة واحدة فى عمره الطويل العريض بلاد آبائه وأجداده ومستقر رفاتهم ، إذ قد يكون أصله راجعاً إلى تلك البلاد من أولئك العرب الذين وزعتهم الفتوح على الآفاق القاصية والدانية . وهذا الأمر من أيسر الأمور على المسلمين وأعودها بالفائدة على الحجاز وأهله ، به تتنفس حالة البلاد ويستفيد الحجازيون من ذلك فوائد أدبية وثقافية ، كما يستفيد مثل ذلك الحجاج أنفسهم ثم يرجعون إلى قومهم بتلك الفوائد الطيبة . وأنا زعيم بأن الذين يقصدون الحجاز وغيره من بلاد العرب ، تامة الاستقلال والحرية، ممثلة الإسلام الصحيح ، ذات الأخلاق العربية المطبوعة على الشمم والإباء والسذاجة الحلوة ، يجدون من الفوائد الأدبية والنفسية والخلقية ويتمتعون بمناظر الطبيعة الصحراوية ما لا يجده أولئك الذين يقصدون

باريس أو برلين أو غيرهما من مدن أوروبا ذوات المناظر الخلابة الكاذبة، ولن يفوتهم من ذلك غير الاباحية المسرفة

رابعاً - يجب أن يقوم الأغنياء منهم باستثمار أموالهم هنالك فيؤلفوا الشركات الصناعية والتعدينية والميكانيكية ونحو ذلك، فيربحوا هم بزيادة أموالهم ويربح أهل البلاد برواج حركتهم الاقتصادية وتعمر تلك البلاد المقدسة وتصبح قوية مرهوبة ذات جانب مرعى مهيب، فإن الأمم بالمال والثروات. والحكومة هنالك تود أن يقوم المسلمون بتلك المشروعات وهى تمنحهم ولا شك التسهيلات المريحة. ومعلوم أن أهل البلاد لايستطيعون القيام بهذه المشروعات لرقة الحال، فلا مندوحة عن منح الامتيازات من يقدرون على الاستثمار والعمل. فيجب على أغنياء المسلمين ألا يدعوا للأجانب فرصة واحدة ينالون بها امتيازاً واحداً من امتيازات تلك البلاد العذراء. ومن الهوان والخسران للمسلمين أن يتقدم الأغنياء من أميركا وأوروبا لاستغلال مرافق البلاد العربية فى حين أن أموال المسلمين من العرب وغير العرب مكدسة فى البنوك لا يعرفون ماذا يعملون بها ولا أين يضعونها. وأنا واثق أنه لو قامت شركة زراعية حديثة وجلبت الآلات الزراعية لاستنباط الماء ولشق الأرض وزراعتها لربحت ربحاً جزيلا، فإن البلاد صالحة للزراعة لا ينقصها سوى الأيدى العاملة والرؤوس المدبرة العاقلة، والأرض غنية بالمياه العذبة التى لا تغيض. والناس فى سائر البلاد يعنون بالأرض التى لا تصلح للزراعة فيصلحونها ويصرفون الأموال الكثيرة

لإصلاحها ثم يزرعونها لا يدعون منها شيئاً . فذنب كبير أن تترك بلاد العرب مادة الإسلام وداره المنيعة مهملة مهجورة وهى لا تتكلف سوى زرعها وسقيها بمائها المخزون فى أحشائها

وقد جاء فى الحديث النبوى الصحيح أنه قال : يأتى زمان تعود فيه بلاد العرب مروجاً خضراء ، وحدائق غناء . ونحن منتظرون تحقق ذلك إن شاء الله فى عهد هذه الحكومة الناهضة

هذه الأمور هى أقل ما يمكن أن يقوم به المسلمون نحو هذه الحكومة وبلادها . وهى أمور هينة نافعة نفعاً جزيلا . ويمكن جمع هذه الأمور فى عبارة واحدة ، هى : يجب على كل مسلم أن يعتبر تلك البلاد وطنه المقدس . وطن روحه . وطن دينه . وطن آبائه . وطن شرفه التالد والطريف ، فيسعى جهده فيما ينفعها وما يرقيها ، ويسعى جهده فى دفع كل ضرر يمكن أن يمسها أو يمس حكومتها . ومن لا يصنع ذلك فليس فى الواقع من الإسلام فى شىء

وأما ما يجب عليها هى فهو :

أولا : يجب عليها أن تسعى طاقتها لتعريف المسلمين العقائد الإسلامية الصحيحة قبل أن يطرأ عليها ما هو معلوم من الخرافات والبدع ، وذلك بإلقاء الدروس العامة بين وفود الحجاج والزوار كل عام وبوضع الكتب القيمة فى ذلك وكتابة المقالات وتفهيم ذلك من يفدون لطاب العلم فى الحرمين من أبناء المسلمين . فان المسلمين فى حاجة ملجئة إلى ذلك ، ولا نعلم من هو أحق بالقيام به من هذه الدولة لأسباب:

أولها بعد علمائها ورجالها عن البدع التى حملت على الاسلام حملا غير جميل ، ثم بعدهم عن تلك الأمور التى تفسد الفطرة والطبيعة السليمة وذلك لمركز البلاد وصرامة الحكومة . وفى الحق أن المسلمين فى حاجة إلى تعريفهم دينهم قبل أن يعبث به الجهل والهوى . وها نحن نرى الفرق الزائفة من المنتسبين للاسلام كالقاديانية والبهائية لايفترون عن الدعاية الواسعة المنظمة إلى مذهبهم الجديد البعيد عن الاسلام . وهاهم دعاة النصرانية بل ودعاة الالحاد ينشرون الدعايات المنظمة الواسعة إلى ماينتحلون . فلماذا لايكون مثل ذلك أو أحسن منه لبيان الاسلام الصحيح ؟ ولماذا لاتقوم بهذه الدعاية أحرص الحكومات الاسلامية على الاسلام ؟ ولماذا لا تصدر الدعاية من مصدر الاسلام الأول ؟

الدين الصحيح لا بد له من دعاية ولا بد لهذه الدعاية من مركز ، وليس ما يصلح أن يكون مركزاً لها مثل مصدر الإسلام الأول

ثانياً : يجب عليها أن تسعى قدر ما تستطيع لرفع كل حيف يراد إنزاله بالمسلمين أو بالإسلام نفسه وتحتج على ذلك بالشدة وتبذل نفوذها الأدبى فى سبيل ذلك ، حتى يشعر العالم أن الاسلام رابطة شاملة فوق الجنسيات كلها وفوق الحزبيات وفوق الأهواء والأغراض والمصالح الخاصة ، وحتى يشعر العالم أن المسلمين يد واحدة وجماعة واحدة لاتفصلها الحواجز والمسافات ، ولا تقطع مابينها ضربات القضاء الأليمة

ثالثاً : يجب عليها أن تبذل طاقتها فى إثبات راحة الوافدين عليها وإسعادهم وتوفير مرافق راحتهم فى الإقامة والترحال ، فتجد فى إيجاد

المياه الصحية العذبة وفى إيجاد المستشفيات ودور الإسعافات وإيجاد الأطباء وفى المحافظة على أرواح الوافدين وأموالهم وإزالة كل مايسوق لهم التعب والقلق

رابعاً : عليها أن تستعين بذوى الخبرة والمعرفة من المسلمين فى إصلاح البلاد وعمرانها ، وذلك فى شؤونها كلها من إدارية وسياسية وأدبية وثقافية ونحو ذلك . ولا تقدم على المسلمين أحداً

هذه هى الأمور التى تجب عليها باعتبار وضعها الواقعى من الاسلام والمسلمين . ومن الحق أن نقول إنها هى لم تقصر فى القيام بهذه الحقوق أو بأكثرها ، فقد طبعت الكتب الإصلاحية وفرقتها مجاناً ، وأمرت بإلقاء الدروس فى الحرم المكى أيام الحج ، وسهلت السبل أمام من أراد استغلال أمواله فى بلادها أعظم تسهيل ، واستعانت بذوى الخبرة والمعرفة من ذوى الأقلام والادارة والسياسة وفنون الاصلاح على قدر حاجتها . وهى بهذا تحقق الوحدة الاسلامية أفضل تحقيق وتقيم المثل الأعلى الإسلامى القائل : إن الاسلام وطن عام ، بل رحم عامة لكل من يدين الاسلام ويولى وجهه شطر مطلع الإسلام ومطلع نبى الإسلام فى صلاته لربه فى اليوم مرات . ولا ريب أن نظرة الحكومة العربية إلى المسلمين ، هذه النظرة العاطفة الحكيمة ، سوف تعيد ذلك المعنى الإسلامى الجليل القاضى بأن المسلم للمسلم كالبنيان يمسك بعضه بعضاً ، وأن المسلمين كالجسد الواحد إذا مرض منه عضو ألمت له سائر الأعضاء

اعتبار

فى نشوء هذه الدعوة، ثم صيرورتها دولة، وفى سرعة انتشارها وانتشار سلطانها، وفى اكتساحها كل ماقاومها ووقف فى سبيلها، وفى صمود رجالها وصبرهم على الضراء والبلاء واعتساف القريب والبعيد فى سبيل إتمامها وإعلائها ووضعها في الموضع اللائق بها، ثم فى بلوغهم كل ما أملوا وانتصارهم الانتصار الحاسم، ثم فى خلود ذكراهم وبقاء صيتهم ينتشر ويتسع وفى رنين أسمائهم فى جوانب المعمورة وعلى صفحات التاريخ بلا انقطاع ولا فتور، ثم فى اقتداء اللاحقين بهم وتوارد أهل الفضل على النهج منهجهم فى الإصلاح، ثم فى بقاء ذريتهم في صدر المتزعمين المصلحين وفى جبين الدهر غرة ونوراً: فى هذه الأمور كلها عبرة للمعتبرين وذكرى للذاكرين. فى ذلك كله ماينادي كل وقت: أيها المتجافون عن الدين! انظروا إلى العرب فى بلادهم وانظروا ماذا فعل بهم الدين. حل فى قلوبهم فأخرج منها كل شيء سوى الله وسوى الدار الآخرة دار الجزاء الأوفى، فغسل من صدورهم الجبن فدوخوا الظالمين المفسدين، والغل فأصبحوا إخواناً متوادين، والظلم فرجعوا موازين عادلين، والجهل فمادوا فقهاء عالمين، والفرقة فأصبحوا أعزة مرهوبين. أيها المتجافون عن الدين الراغبون فى العزة والكرامة! انظروا كيف خلق الدين من الصحراء مدنية، ومن البداوة أمة منظمة، ومن الفرقة جماعة، ومن الخوف أمناً، ومن الذل عزاً. وانظروا كيف أنبت

الدين الحكمة بين الصخور ، والنبوغ بين الطلح والغضا ، والعدل بين الخيام والآكام . أيها المتجافون عن الدين ! إن فى الدين قوة لا تغلب : فيه جيش لمن فقد الجيش ، وفيه سلطان لمن رام السلطان ، وعز لمن أعوزه العز . فيه قوة لا تقاومها المادة ولا سلطانها . ثم ينادى : أيها الجبناء القابلون الضيم والخسف خوف بطش المقادير ! انظروا كيف هرب الموت ممن طلبه ، وكيف عاش من عاش فى جفن الردى عزيزاً مرهوباً . إن الموت العاجل لمن هابه ، والحياة الطويلة الرضية لمن زهد فيها ، وإن للجبان الذل والهوان ثم الموت والنسيان ، وإن للشجاع العزة والعظمة ثم الخلود والخلود فى الأرض وفى السماء . إن الخطر كالرجل اللئيم يقع على من خشيه وأكبره ، ويفر ممن احتقره وأصغره ، وإن العز والحياة كالرجل العزيز الكريم لا يظفر به إلا العزيز الكريم .. أيها الجبناء ! لو كنت جباناً لعشت كما عشتم ذليلا ثم مت كما متم غير محمود ولا مفقود ، ولو كنتم شجعاناً مثلى لعشتم كراماً أعزاء مثلى ثم ملكتم الموت تصبونه على من شئتم والحياة تهبونها من شئتم . ولكن آه ! لولا الجبن لما كان هنالك غالب ومغلوب ولا عزيز وذليل ، ولما اقترن المدح بالشجاعة

ثم ينادى : أيها المبتدعون الدائنون بالخرافة ! دعوها فما لها من سلطان ولا دوام ، وما هى إلا أن تصادم الحق والعقل فيدمغها ويدمغ أصحابها فإذا هى زاهقة وإذا أصحابها مقهورون وإذا الغلب والعز للعقل والهدى . . أيها المخرفون ! إن الخرافة غضب الله يلقيه الأحيان فى قلوب صدت عن هداه عقاباً لها على صدودها وجفائها

انظروا كيف صنع الدين السليم من التخريف والجهالة بمن تمسك به . أراه به الأمثال العليا الشيقة فأحبه وغلا فى حبه فنسى كل شىء فى سبيل نشره وإعلائه واستسهل الموت وما هو أشد منه لذلك . وما استطاع شىء لا الموت ولا غيره أن يقف فى وجهه وأن يرده عما أراد . ذلل له الأبيَّات فصعد به إلى ما فوق الماديات وبلغ به سدرة المنتهى فنظر إليه الناظرون من عل نظرة الدهشة والحسد . ووضعهم من تاريخ البشر في رأس الصفحة

إن فى أطوار هذه الدعوم العجيبة وفى سير انتقالها لعبرة بالغة لمن يريدون الإصلاح ، وعظة فصيحة لقوم يتهيبون الجهر بالحق والصواب خيفة الغوغاء والدهماء ، وسيراً وراء إرضاء السلطة الغاشمة أو طمعاً فى تقديس الجاهلين المخدوعين . ثم فيها عبرة ناطقة لقوم يتجافون عن الدين ناسين أنه لا يجمع الجماهير المفرقة ولا يخلق الهمم التواقة إلى الكمال مثل الدين والإيمان بالله إيماناً شجاعاً فطرياً

ولو أن المسلمين كانوا مؤمنين إيمان هؤلاء لما استطاع الغريب الغاشم أن ينال منهم بعض ما نال اليوم ، ولما رضوا بالهوان هذا الرضا ، أو رقدوا تحته هذا الرقود الطويل البغيض

أين من يعقل المواعظ ومن تفيده الحوادث الجسيمة . إنه لم يكن لقلب جزيرة العرب يوماً ما شأن يذكر فى أطوار تاريخها كله ، وما ذكرت إلا بحسن خيولها وكثرة شعرائها وجودة شعرهم وخصب خيالهم ثم بشجاعة رجالها المنفقة فى نهب روح القريب والصديق

وإثارة القلاقل . هذا هو كل ما كان قبل فى الجزيرة . فلما أن عرفت الدين الصحيح أحبته الحب الخالص الصحيح وعلا بها إلى حيث ترمقها النواظر من فوق . . إنه ما أسعد الانسانية الإسعاد الصحيح مثل الدين ذى الآثار الحقة . فليطلب السعادة فيه من فقدها ، وليطلب المثل العليا الكاملة محبوها وعاشقوها فى الايمان الشجاع الصحيح

الدعوة فى كلمات

نوجز هذه الدعوة فى كلمات رغبة فى بيانها :

العبادة صورها ومعانيها ألفاظها ومغازيها كل ذلك لله رب العالمين ، ليس لمخلوق لا نبي ولا ملك منها شيء . ومن فعل ذلك فقد تعدى حدود الله وحدود عقله

للأنبياء والملائكة والأولياء والعباد كلهم أقدار ودرجات لا يجوز إنزالهم عنها ولا رفعهم فوقها . ومن فعل ذلك فقد أغضب الله إذ أعطى خلقه حقه وأغضب عباده الصالحين أنفسهم إذ وضعهم فى مواضع لم يضعهم الله بها

الأنبياء يطاعون ويعظمون ويتبعون . والله يعبد ويدعى ويخاف ويرجى ويرجع إليه الأمر كله

المسلم لا يخاف ولا يرجو إلا الله ولا يخضع ولا يذل إلا له وحده

الإسلام عبارة عن شيئين اثنين : كتاب الله الذى هو القرآن ،

وسنة نبيه التى هى الأحاديث الصحيحة . وما لم يكن أحد هذين الأمرين فليس إسلاماً وليس من الإسلام فى شىء

الإسلام هو الدستور العام الشامل للمسلمين كافة فيما يتناول الفرد والجماعة . لا يجوز فيه زيادة ولا نقصان ولا تحوير ولا تغيير

حق لكل مسلم أن يتدبر كتاب الله وأن يحاول فهمه على قدر طاقته واستعداده ، وليس مفروضاً عليه أن يتقبل كل الآراء التى تقال فى تفسير القرآن إن لم يكن ثم دليل شرعى يعين ذلك التفسير

إجماع المسلمين ولا سيما الصحابة حجة شرعية يجب احترامها

المسلم لا يكون مسلماً إلا إذا جمع ثلاثة أمور : إذا اعترف به فى قلبه ، ودعا إليه بلسانه ، وعمل ما أمر به بكل جسمه وأعضائه . والوطنى حقاً هو من اعترف بمصلحة وطنه فى قلبه ، ونوه بها فى لسانه ، وعمل لتحقيقها بكل جسمه . . والرجل الذى لا يجمع هذه الأمور الثلاثة زائف الوطنية ، كما أن المسلم الذى لا يجمع هذه الأمور الثلاثة زائف الإسلام أو هو المسلم الزائف . وهما بين المسلمين والوطنيين كالورقة المالية المزيفة بين الأوراق المالية الصحاح

الاسلام وطن عام لكل من آمن بالله ورسوله . والأوطان الواقعية للمسلمين هى أوطان خاصة ثانوية . وكل وطن جمهور أهله مسلمون هو وطن لكل مسلم فى الأرض

الإسلام قومية كبرى تتألف عليها قلوب المسلمين وأهواؤهم وعواطفهم

المسلمون جسد واحد إذا ألم منه عضو ألمت له سائر الأعضاء

المسلم لا يكون جبانا ولا ذليلا ، ولا يكون مواليا لخصوم الأمة والوطن أو الدين وإلا فهو الخائن ، والخائن لا يكون مسلما حتى يكون المسلم خائنا . للمسلمين كلهم وللعرب كلهم وطنان خاص وعام وأدنى وأعلى ومادى وروحى : أما الأوطان الخاصة المادية فهي الأوطان الواقعية لأهل الإسلام . وأما الوطن العام الأعلى فهو الوطن الذى اشرق منه نور الاسلام ورسول الاسلام وجنود الاسلام . والذى نزل فيها جبريل ومعه القرآن كتاب الله إلى محمد عبدالله ونبيه . وهذه الأوطان هى أوطان أجسام المسلمين . وأما ذلك الوطن العام فهو وطن أرواحهم وعقائدهم وعواطفهم بل وآبائهم . . وأنت إذا حننت إلى وطن جسدك واشتقت إلى مولده حننت أنا إلى وطن روحى ودينى ومولدهما فكنت أنت ماديا وكنت أنا روحانيا ، فكنت أنا أرشد منك فى الحنين وفى الشوق

المسلمون عند الله سواء لا فضل لأحد على أحد ولا أحد أقرب إلى الله من أحد إلا بالتقوى والأعمال الصالحة التى هى حق مشاع بين عباد الله كلهم .

الاسلام ليس فيه وساطات بين الله وعبيده ، كالوساطات التى تكون بين الخلق مثل ما بين الملك ورعيته ، بل المسلم يدعو الله ويرفع إليه حاجته كفاحا بلا وسيط ، فالوساطات لا تجوز إلا عند من يظلمون فى أحكامهم أو يجهلون أو يخافون ويرجون . أما الحاكم ، العالم بكل شيء ، العادل فى حالاته كلها ، الذى لا يخاف أحدا ولا يرجو أحدا

ولا يحتجب عن أحد فما معنى الوساطة عنده . . ؟ ! لا أنا ولا أنت ولا أحد من العقلاء يتخذ عند مثل هذا وساطة

ليس هنالك أحد من الناس معصوم من الخطأ ما خلا الأنبياء والمرسلين ، وليس على مسلم أن يقلد فى دينه إنساناً بعينه تقليداً أعمى لا تفكير ولا اختيار معه ، بل لا يكون المسلم تاركا اختياره إلا عند حكم الله وحكم رسوله

المؤمنون وإن تباعدت أوطانهم واختلفت لغاتهم . إخوان ، تربط ما بينهم رابطة هى فوق رابطة النسب ورابطة الوطن وفوق كل رابطة ، وهـذه الرابطة هى رابطة العقيدة والروح والدين والإيمان . فإذا ما عطفت على من يجتمع معك فى وطن أو نسب كان ذلك الذى يعطف على من يجتمع معه فى الروح والعقيدة والإيمان أصدق منك عطفاً وأرشد منك عطفاً

المسلم يجب أن يكون رجلا تام الرجولة ، ميالا إلى الجد ، عزوفاً عن اللهو والخلاعة وما ينتقص الرجل الكامل ، لا يسرف فى اللهو والترف واللعب والعيشة الماجنة

على كل مسلم فى الأرض أن يؤمن إيماناً صادقاً قوياً بأن له حقاً مضاعاً مغتصباً لا بد من المطالبة به والسعى وراءه مادام الإسلام غير مرفوع الرأس فى العالمين ، وما دام بلد إسلامى تحت نير العدو الغاصب وتحت راية ليست راية اسلامية

على كل مسلم أن يؤمن ظاهراً وباطناً بأنه لا أحد من الناس أجدر

منه فى شىء ، وأن الله اختاره من شعب اختاره لأن يكون الوصى على العالم ، القائد الروحى له . . فلا بد من السعى وراء هذه الوصاية ولا بد من بلوغها متى ما امتلأت نفوس المؤمنين بها

المسلم لا ييئس من بلوغ الغرض الأقصى مادام جاداً فى الطلب ، جاداً فى الجهاد والكفاح . بل يعلم بأن العالم فى يدى الله يقلبه كيف يشاء ، ويعلم أن الله ناصر حزبه وجنده ، وإن كانوا قلة ، على من خالف أمره وظلم و بغى ، وإن كان العالم كله .

على كل مسلم أن يجعل سلف المسلمين كأبى بكر وعمر وخالد ابن الوليد وعمرو بن العاص وغير هؤلاء : على كل مسلم أن يجعل هؤلاء أئمته إذا همّ فى جهاد أو دفاع أو مغامرة فى أمر عظيم جسيم ، وأن يراهم المثل الأعلى الذى يحتذى ويقتدى به

على كل مسلم أن يجتهد فى ألا يعامل إلا المسلمين ، ولا يقدم على المسلم غيره البتة فى معاملة أو تجارة أو ما فيه نفع مادى أو أدبى

وإجمالا يجب على كل مسلم أن يجعل القرآن وسيرة أبطال الإسلام نصب عينيه فى كل ما يحاول القيام به وما يحاول أداءه من معاملات ودفاع وجهاد وفى أعماله الخاصة والعامة الظاهرة والباطنة . ثم عليه أن يؤمن بأنه فى عمله هذا بالغ كل ما يسمو إليه قريباً أو بعيداً ولا ريب

أيها العربى

أيها العربى :

إن ثلاثمائة مليون مسلم فى أطراف الأرض ينظرون إليك من خلال دخان المدافع وبخار البوارج وقساطل الغزاة المعتدين نظرة العائذ المستجير الآمل الواجل ، نظرة المريض إلى وجه الطبيب . ويتلقفون صوتك من موجات الأثير خلال أزيز الطيارات وزئير المدافع وفرقعة البارود وهزج البنادق تلقف الأزهار الظمأى الذابلة صوت الغمام الساكب ، أو تلقف الغريق الموبق صوت المنجد المغيث

وإن ألف مليون وثلاثمائة مليون ينظرون إليك نظرة الطمع والجشع والاختتال أو نظرة الشامت الساخر المتشفى ، ويحدقون بك تحديق الجائع الشره بالغذاء الشهى المستطاب . فأبصر كيف تنجى الأولين ، وكيف تنجو من الآخرين

أيها العربى :

ها أنت ترى العالم كله يعج بالويل والدمار ، ويئن بمعاول الهدم والتخريب والبلاء فى السماء والماء والفضاء . كل جاد فى اختراع أسباب الموت والبلاء والتنافس على ذلك ، وكل جاد فى امتلاك الأنفاس والمياه والهواء والأرض والسماء ، وكل يتلمظ إلى الدم القانى وإلى انتزاع الأرواح ، ويتوثب إلى خنق أنفاس كل ضعيف قليل الحول والطول . يتساءلون ولكن بأطراف الشفار ، ويتجاوبون ولكن بالقذائف

المسمومة ، ويقطعون المعاهدات ولكن إلى استكمال آلات الموت والاستعداد للوثوب ، ويتلاينون ولكن تطلباً للفرصة والغرة . أمسكوا أنفاسهم جميعاً إصاخة إلى طلقات الخطر وقصف المدافع وأزيز الطيارات ودوى البنادق . فماذا أعددت لهذا اليوم المشؤوم من وسائل الدفاع عن الحرم والذياد عن الوطن ؟ وماذا ادخرت لرد أجناد المغيرين المعتدين من وسائل الموت والدمار فى هذه الآونة التى لا ينجو منها إلا من ملك الموت والدمار ؟ !

لا ريب أنه ليس عندك من آلات الموت المادية مثل ما عند هؤلاء ، ولا تملك كل ما يملكون من ذلك . ولكن عندك عدة لا تقاومها عدة ولا يملكها هؤلاء الذين يملكون هذه العدد الجهنمية

إن عندك عدة الايمان بالله الخالص الحار ، وعندك كتاب الله ، ثم عندك الايمان بعدل قضيتك وما تدعو إليه والايمان بأن ما أنت عليه حق لا باطل فيه ويقين لا شك ، وعندك الإخلاص لدعوتك وبلادك ، الإخلاص الذى يجعلك تقف أمام الظالمين ولو كانوا العالم كله وقفة تتناثر من حولها أرواح الظلم والاستبداد ولا تتزحزح ، وقفة يتلاقى عندها الإيمان الخالص الشجاع بالفجور الخالص الجبان . إن عليك أن تأخذ من إيمانك وعزمك سلاحاً كافياً ، إن فاتك السلاح الكافى ، لتسحق به ما أمامك من عقبات وصعوبات وتحطم به ما يعوقك

عن أن تكون فى الصف الأول من أمم الأرض ، بل أن تكون الصف الأول

إن الايمان والجد إذا صحّا لا يقصران عن غاية من الغايات ، ولا تفوتهما حلقة من حلقات المجد ، ولا يدعان فضيلة من الفضائل لسموها و بعد منالها

إن القوة لا تخلق نفسها ولا تدبر نفسها ولا يجدها الناس فى الجبال مهيأة لمن أرادها . وإن الأمم لا تخلق شاكية السلاح كاملة العدة عزيزة الجانب . إنه لا شيء من ذلك . ولكن الناس يؤمنون بعدل ما يرومون فيعزمون فيعملون فيبلغون ما يبلغون ويعدون أنفسهم ويصونون دولتهم ويحصنون عزتهم بسياج القوة والعظمة . إن الايمان هو الأول وهو الآخر أيضاً وهو كل شيء فى الحياة ومظاهر الحياة ، هو الذى يقاتل ويجاهد ويقوم بالهجوم والذياد والخلق والاختراع . فلا على الأمة الطامحة إلى العظمة إذن إلاّ الايمان الشجاع الخالص ، وعليها بعد الايمان الجد والعمل بما يفرضه الايمان من من مضاء وإقدام وجلد ، و بعد هذا تمد يديها إلى اقتطاف ما تشاء ولو كانت نجوم السماء ، فلن يقول لها شيء فى الوجود كفّى يديك ، ولن يقول لها أيضاً قائل هذا عزيز عليك

إن أقوى أمة فى الأرض اليوم كانت فى الأمس أضعف من أضعف أمة فى الأرض اليوم ، وما كانت قوتها إلا بإيمانها بعدل ما تطلبه ، ولا كان ضعفها إلاّ بكفرها بما كان ينقصها و يعوزها

إذن لن يعجزكم شيء مع الايمان بالله إيماناً خالصاً بريئاً ، والايمان بعدالة قضيتكم ، ثم إخلاصكم لها وجهادكم في سبيلها

إن السلاح الذي كان في أيدي أسلافكم يوم أن ملكوا العالم هو اليوم في أيديكم . وهو الذي نصرهم لما عرفوا كيف يسيرون معه وكيف يعملون به ، وسينصركم ولا ريب إذا ما عرفتم كيف تمشون معه وكيف تعملون به ، فان الأمر الذي ينصر في وقت لا يكون خاذلا في وقت آخر إلا أن تكون الوسائل غير الوسائل والغايات غير الغايات ، وإلاّ أن يكون الشيء الواحد مقتضياً مانعاً ، كما يقول الأصوليون في أصولهم

هذا القرآن كتاب الله بأيديكم كما كان بأيديهم محفوظاً مرعياً ، وهذه سنة النبي عليه السلام محفوظة لكم كما كانت محفوظة لهم ، وهذه البلاد المقدسة التي كانت توحي إليهم حرارة الايمان وصلابة المهز ، وتبعث إلى أرواحهم سعة الآمال وأنف الآناف عن الخضوع والاستخذاء والرضا بالدون والقسمة الخاسرة ، وهذه السماء الصافية التي كانت ترسل إلى أنفسهم الصافية الآمال المترفة السامية ، والهمم التواقة إلى فوق ماتراه العيون عيون الخيال من السمو والرفعة والطموح ، والتي كانت تعير أنفسهم سموها هي وصفاءها هي وبعدها عن النقائص والأدناس . هذه السماء الصافية التي كانت لهم كذلك ، هي لك اليوم كذلك ، فانظر إليها تجدها كذلك

لاتقولن أين لنا اللحاق بالأمم وقد أدلجت وأضحينا ، أين لنا ذلك ونحن في بلاد فقيرة وهم في بلاد تفيض ثروة وغنى وسعة . لاتقولن

شيئاً من ذلك . فإن هذه البلاد التى تراها تموج ثروة وغنى كانت فى يوم قريب من أيامها فى فقر مدقع وكان أهلها فقراء مدقعين ، وكانوا متأخرين ضعفاء ، وكانوا . . وكانوا . . ولكنهم آمنوا بفقرهم ونقصهم وتأخرهم ، ثم آمنوا بأنه لابد من النهوض والغنى والعمل والجد ، ولا بد أن يعقب ذلك النجاح الباهر والنتيجة السارة ، فقاموا وعملوا وجدوا ، فأدركوا ما أملوا وفوق ما أملوا . حاولوا أسباب التقدم والعمران والغنى كلها ، عمدوا إلى الأرض يستنبطون كنوزها ، والأرض كنز لا ينفد ، وعمدوا إلى مالا يصلح للزراعة منها والانتاج فشذبوه وهذبوه وأنفقوا عليه الكثير المختار من العمل والصبر والتفكير والمال حتى أصبح أرضاً خصبة تؤتى أكلها كل حين . ولقد أصلحت دولة إيطاليا بؤراً من أرضها ما كانت تصلح فى يوم من أيامها للزراعة حتى صارت من أخصب الأرض . وكذلك فعلت سائر الدول .

لا تقولن شيئاً من ذلك والمثل الذى يرد عليك تأخذه من نفسك . هؤلاء أسلافك الذين طوقوا العالم كله كانوا هم فى هذه البلاد التى تزعم أنها فقيرة وبعيدة عن أسباب الثروة ، فهل منعهم هذا أن يكونوا سادة العالم وقادة العالم وأغنياء أهل الأرض حيناً ليس بالقصير من الدهر ؟ ! بل لقد كان هذا سبباً عاملا فى غناهم وحولهم وطولهم

هنالك أمر واحد كان أسلافك يحوزونه ، به يقاتلون ويعملون ، وبه يبلغون ما يطمحون إليه بلا كلال . هذا الأمر هو إيمانهم ، الإيمان الذى قتل من أنفسهم كل العوارض المعوقة عن تسنم الآمال القصية

المنعمة . قتل الأنانية والجبن والذل ، ثم قتل الحيوانية المفروضة على كل إنسان ، المجبول عليها كل إنسان ، حتى أصبحوا روحاني الباطن إنساني الظاهر ، أصبحوا روحانيين فما استطاعت المادة الكثيفة أن تحول بينهم وبين ما تسمو إليه إنسانيتهم . وهل تستطيع المادة أن تقف أمام الأرواح والروحانيين النورانيين ؟ !

إن أسلافك كانوا يحوزون هذا السلاح . فما عليك أنت إلا أن تحوزه ثم تكون كما كانوا وتدرك ما أدركوا . اقتل من نفسك الأنانية والحيوانية وعاهد الله على قتل هذين الخلقين العدوين ، وأنا أعاهد الله ثم أعاهدك أنى أول من يقتل هذين الخلقين من نفسه وأول من يطؤهما تحت نعله

لا يكون الإنسان إنساناً حتى يغسل من نفسه الأنانية الصماء العمياء الهوجاء . ولا تبلغ أمة غرضها الأقصى مادامت خاضعة لأنانيتها وحيوانيتها

لقد فكرت فى خلق الأنانية فوجدته الأمر الذى يقضى على الأفراد والجماعات وعلى الآمال ، فإنه هو منبت الحسد والتنافس الرديء وحب الذات ونسيان كل شيء فى سبيل ذلك . وهذه الأدواء ما اجتمعت فى جماعة إلا وضعتها فى الحضيض الأسفل ، وقلمت أظافرها وشذبت قوتها مادية ومعنوية . فإذا ما كانت هذه الأدواء فى الجماعة كاد بعضها بعضاً وأبغض بعضها بعضاً وحطم بعضها بعضاً ، فتحطمت كلها فأصبحت فى الغابرين

يقابل هذا الخلق الردىء ، أعنى الأنانية ، خلق آخر جميل رضى . ذلك هو خلق أسميه نقاء الباطن أو خلوص السريرة من أعراض الحيوانية . وخلق نقاء الباطن يصير الأمة ملائكة متجسدين بأجساد الإنسانية . هذا الخلق إذا اتفق لأمة سما بها إلى أبعد مما تشاء وبلغ بها كل ما تفرضه على الدهر وتقترحه على القدر . لأننا نعنى بنقاء الباطن خلوصه من سائر العلل الرديئة ، من الشك والحيرة والحسد والخبث والأنانية ونار الغيرة ، ثم من الجبن والخنوع للظلم والاستخذاء للظالمين ، ثم تعلق النفس بشىء واحد نسميه الحق والعدالة تعلقاً يجعلها تفنى فيه ، لا فناء الصوفية والصوفيين ، بل فناء الباطل فى الحق ، والجور فى العدالة ، والأنانية فى الانسانية ، تعلقاً يجعلها لا تبصر إلا الحق وحده والعدالة وحدها ، ثم لا تعلم أن فى الوجود شيئاً يحسب له حساب غير الحق والعدالة

أيها العربى :

لقد أخذت الحكومات العريقة فى الاسلام ونصرة الإسلام تتنكر له وتقلب له ظهر المجن بشكل يدعو إلى التشاؤم والريبة ويخشى أن يكون واسع النتائج السيئة . فكن أنت إذن النصير له فى عصر نكبته وبلائه ، وكن أنت حاميه وملاذه فى يومه العصيب ، كما كان سلفك له فى أيامه العصيبة الأولى ، يوم أن كان غريباً فى داره ذليلا بين أهله ، اسم به وليسم بك أيضاً سمواً يجعل هؤلاء الذين تنكروا له يحسدونك عليه ويعرفون أنهم قد رموا سلاحاً كانوا به قادة أعزة ، وصولجان عز وفخر كان يتألق فوق رؤوسهم ، وينظر إليه

نظر الغبطة والحسد . اسم به سمواً يكون حجة على هؤلاء الذين تركوه زاعمين أنهم ما تركوه إلا بعد أن علموا أنه سبب تأخرهم وبلائهم الذى هم فيه . أقم عليهم الحجة الواضحة ، ولا تدعهم يذهبون فى وهمهم بعيداً . كن أنت الفارق لهم بين الحق والباطل

لا ريب أن نهوضك به ونهوضه بك يجعل هؤلاء الذين رغبوا عنه جهلاً به وبقيمته يرجعون على أنفسهم بالندم واللائمة ، ويدركون أنهم ما كانوا موفقين فى اليوم الذى أعلنوا به العداء للاسلام ولغته ، وأن ذلك كان منهم نزوة من نزوات الشيطان أو العجل المقرون بالزلل

أما إذ ماوقفت به والناس يتقدمون ، فإن هؤلاء ولا ريب يعدونك حجة لهم على عدائهم الإسلام ولغته ؛ ويقولون : هؤلاء العرب أهل الإسلام ولغته ومصدره ، والواضعون أيديهم على المقدسات الإسلامية ، تمسكوا بالإسلام وبأحكامه ، فماذا عمل لهم ؟! هل قدمهم ؟! هل جرى بهم مع الأمم إذ جرت ؟! وهل . وهل . . من أنواع الاعتراضات والأسئلة . فلتكن إذن حجة للإسلام لا حجة عليه ، ومثال قوته لامثال ضعفه ، وعنوان نهوضه لا عنوان سقوطه ، ومظهر سره لامظهر فقره

أيها العربى :

إن الله قد خصك بفضيلة قد انفردت بها بين المسلمين . وذلك أن جعلك تضع يديك على المقدسات الإسلامية والمعالم الطاهرة التى تهفو إليها قلوب المسلمين فى أنحاء المعمورة كلها ، وجعلك ملتقى المسلمين فى

كل عام وقبلتهم كل يوم إذ يصلون لرب العالمين . بهذه الفضيلة التى تقابل نقص ثروة بلادك تستطيع أن تستفيد فوائد وأن تكسب بها رضا المسلمين وقلوبهم . فهل استثمرت هذه الفضيلة النادرة وانتفعت بها ؟ وهل جددت فى استغلالها ؟ إنها لفرصة رابحة سانحة ، التفريط فيها تفريط فى أمر لا يعوض

إن كسب قلوب المسلمين لأمر خطير ، وهو سهل هين لا يحتاج إلا إلى مجهود ليس على الرجل الرشيد بعسير ، يحتاج إلى الأخلاق الطيبة ، والدعاية المنظمة ، والملاينة واكرام الوفادة ، ثم يحتاج إلى أن تبسط قضيتك العادلة لعقلاء الوافدين بسط الحكيم البعيد عن التهور والغش والحماقة . فرصة جاءتك عفواً تبذل الحكومات العظيمة ألوف ألوف الجنيهات لأجل الحصول على مثلها أو أقل منها

أيها العربى :

إن الساعة رهيبة تتطلب الحزم والعزم واليقظة التامة والدأب القوى . إن هذا العصر لم يكن كالعصور الذاهبة فى الوسائل والغايات . هذا العصر هو فى الحق عصر الخداع والشره والكذب والفجور الأعمى الأصم . عصر لا يعرف أن الحق والحياء وجدا فى سبيل إشباع المطامع الحيوانية

ها هى الشعوب الطيبة القلوب تتخطف من كل مكان بالوعود الفاجرة ، والمعاهدات المزورة المصبوبة فى قوالب النفاق والغش والصفاقة . وها هى نفوس الشعوب وأرواحها تذبح وتستباح علناً باسم

الثقافة والتعليم والحرية الفكرية الملحدة . وهذه القوميات تباع وتشترى وتراق دماؤها على حساب حرية الصحافة وحرية النقد . وهذه الأخلاق الماجنة الفاجرة توزع على الشعوب المنهوكة القوى الروحية والمادية باسم العلوم والآداب والفنون . وهذه الآفات الاجتماعية والأمراض الخلقية تفرض على الأمم المتأخرة فرضاً بأسماء خداعة غرارة ومعارض براقة مزورة تستبي أطفال العقول وضعاف المدارك . هذه الآفات كلها قد طمت على الأقطار وغمرتها حتى ألفت وصارت جزءاً من حياتها لا يتجزأ ، كما يقولون ، تغريراً وخداعاً

فحذار أيها العربي هذه الآفات وما يمس الأخلاق أو المعنويات الطيبة ، فما كالأخلاق مفقود . ولقد علم الناس أن الأمم الظالمة المعتدية لا تقدم على غزو الأمم الضعيفة بالعدوان المسلح حتى تغزو أخلاقها ومعنويتها فتنهكها وتضعفها وترميها بالفشل ، ثم تغزوها بالحديد والنار فلا تجد حينذاك مقاومة ولا دفاعاً . أعنى أنها تعمد إلى قوة الأمة المعنوية فتحطمها وتشذبها من أطرافها ، تارة بإفساد عقائدها بالشكوك والريب ، وتارة بإفساد أخلاقها بجلب الفجور وعرض الفجور ، ثم تتقدم الى قوتها المادية فتلحقها بقوتها المعنوية تحطيما واستئصالا ، فتنال ما تصبو إليه من الانهاك والاضعاف ، ثم تفرض ماتشاء على ذلك الشعب المنكوب بسوء الحظ الذى رماه بين هؤلاء الغادرين الخونة

والقوات المادية مهما يقل فى إكبار شأنها وخطرها لا تقاوم القوة المعنوية . فإن الروح فى الواقع هى مبعث القوة والأيد . وإذا

ضعفت الروح ضعف الجسم كله وتعطلت آلاته الميكانيكية ، أعنى أعضاءه وجوارحه . وما يغنى السيف البتار فى يد من طارت نفسه شعاعاً خوفاً وذعراً ؟ وماذا يصنع الرجل الضعيف الروح ، وإن كان مسلحاً ، أمام الرجل الأعز ذى الروح القوية ؟ إنه لاشىء . ولهذا أذهب إلى أن استخذاء الشرقيين على وجه العموم ، أو المسلمين على وجه الخصوص ، لسيطرة الغرب ليس راجعاً إلى فقدهم القوة المادية فحسب ، بل إن هذا الخنوع الذى ليس له مثيل فى التاريخ يرجع فى الأغلب إلى فقدانهم القوة المعنوية ، و إلى تخاذل القوى النفسية منهم . وقد عهد التاريخ حديثاً وقديماً أن الأمة إذا قويت معنويتها استطاعت السمو إلى ماتريد ولو كانت عزلاء ، واستطاعت استرداد كرامتها وعزها من الغاصب المسلح . ولقد كانت الولايات المتحدة ، وهي اليوم من أرقى دول الأرض ، فى عصر قريب من عصورها ، مستعمرة انجليزية كحالة الشرق اليوم . فلما أن استكملت قوتها المعنوية ثارت فى وجه الإنجليز ثورة عنيفة رمتهم وراء الحدود ، واكتسحت سلطانهم اكتساحاً لم يبق ولم يذر ، فسارت فى طريقها حتى أصبحت كما هى اليوم

وليس هنالك شىء يضعف القوة المعنوية مثل فساد العقيدة وتسرب الشك والحيرة إلى النفس ، ثم فساد الأخلاق وتدنيسها بالمعاصى والفسوق ، وما فسدت أخلاق أمة وعقائدها إلا سقطت فى الحضيض الأوهد من الذل ، ولو كانت فى أعلى سماوات المجد والشرف . ولقد أدرك هذه الحقيقة هؤلاء الغزاة المدمرون ، لا المستعمرون ، فجدوا جداً

عظيما فى إفساد عقائد الشعوب المغزوة المنكوبة و افساد أخلاقها ، ووفروا أسباب هذا الفساد بشتى الأساليب وكثيرات الطرق . وما يخافون شيئاً مثل خوفهم الشعب المحافظ على الايمان النقى والأخلاق السليمة ، بل إنهم يرون مثل هذا الشعب أكبر خطر على نفوذهم . هذه حقائق لاتند عن بال أحد

ولا يقولن قائل : هذه أمم أوروبا على غاية من فساد العقائد والأخلاق ، وعلى غاية من الامعان فى الفجور والفسوق ، ومع هذا كله نراهم سادة الأرض ومصرفى شؤونها . فكيف تقول إن الشعب إذا فسدت عقائده وأخلاقه أصبح عاجزاً عن السيادة والسيطرة ، عاجزاً عن المقاومة ؟ . . لا يقولن قائل ذلك . فإن دول أوروبا فيها مع هذه الأدواء الفتاكة والمخازى المتعددة فضائل أخرى من الحزم والعزم والنشاط والنصح لأممهم وأوطانهم والاستماتة فى سبيل ذلك ، وهذه تقاوم خطر تلك الأدواء العنيفة وتدفع ضررها عن هيكل الأمة . وقد يغلب الداء وقد تغلب السلامة . والأمة فى جملتها مثل الجسم النامى ، تصيبه ميكروبات الأمراض والعلل ، فإن كان قوى البنية شديدها قاومت حصانته ضرر ميكروبات الأمراض ، فيظل يرى فى الظاهر بريئاً سليما مع وجود جراثيم الأمراض فى بدنه ويوشك أن يتغلب المرض . وهذا مثل أوروبا وقد يوشك أن يطغى فسادها على ما فيها من حياة وعمران . وأما إن كانت بنية الجسم ضعيفة منهوكة فتعلق به ميكروب مرضٍ مرضَ وطوح به مرضه حتى يصبح من الهالكين . وهذا مثل الشعوب الضعيفة كأغلب البلاد الشرقية

ولو أن هذه الدول القوية فى رأى العين صادمتها أمة سليمة الأخلاق صحيحتها بقوة تقارب قوتها لسحقتها ولكشفت ذلك التمويه والخداع البراق

ولقد فضح الله هذه الدول المطلية ببهرج التغرير وأبان حقيقتها كما هى بحرب إيطاليا الدولة الأوروبية المتمدنة لدولة الحبشة الأمة المتأخرة البربرية كما يقولون ، وعرف العالم أن تلك العظمة المزعومة ما كانت سوى أكداس من العصف والهشيم تبدده زوبعة من زوابع الايمان والشجاعة

أيها العربى :

تجنب هذه السموم الفتاكة المعروضة بأسماء الفنون والآداب والعلوم والرقى والحضارة . فلقد حفظك الله من ذلك إلى هذا اليوم ، فحافظ أنت ما بعد اليوم على روحك ومعناك . ولا تنس أن اليوم رهيب ، وأن ساعة الخطر قد دقت ، وأن العالم كله صائر إلى الفناء والنار قبل النار ، وأن الانسانية على خطر عظيم ، فكن أنت ناصرها ، وأن الغلب اليوم وبعد اليوم للحيوانية العجماء الغاشمة ، فكن أنت حربها ، وأن خير العلم ما نفع ، وأن السعيد من وعظ بغيره ، وأن الفرص تمر عجالا ، وأن يوماً يفوت لا يمكن أن يستعاد ، وأن أمراً تستطيع عمله اليوم قد لا تستطيع عمله غداً ، وأن أمما مكبلة بأغلال المعتدين الغاشمين تتمنى أن تكون طليقة حرة مثلك فتعمل وتعمل

نظرة عامة

نلقى فى هذا الفصل نظرة عامة على مافى تلك البلا من دين ورأى وخلق ، ليلم القارىء بالحالة الدينية والخلقية العامة فى البلاد التى ولدت فيها هذه الدعوة . وقد كان اللائق بهذا الفصل أن يكون متقدماً وضعاً قبل بعض الفصول السابقة ، ولكن العذر فى هذا التأخير أنى لم أكن مفكراً فى كتابة هذا الفصل حتى طبع ما طبع من فصول الكتاب

النجديون ، وأعنى بهم أهل نجد وملحقاتها ، كلهم مسلمون وكلهم راض بدينه الاسلام رضا عجيباً . لا يمر على بال أحد منهم طيف الانقلاب عنه أو التفكير فى غيره ، متمسكون بفروض الدين تمسكا عجيباً ، حتى إنه لا يوجد فيهم من يترك الصلاة أو الصيام أو الحج إذا استطاع إليه سبيلا لاظاهراً ولا باطناً ، بل ليس فيهم من يؤخر صلاة إلى وقت الصلاة التى بعدها البتة ، بل يندر جداً من لا يؤدى الصلوات كلها فى أوقاتها الأولى فى المساجد جماعة . فهم يهبون إلى أداء الصلاة فى بيوت الله عند ما يسمعون الأذان مبادرين تاركين ما بين أيديهم من أشغال وأعمال مهما تكن الأشغال والأعمال ، مسوقين فى الأكثر بحادى الإيمان وخوف الله ، ومن لم يكن كذلك ساقه خوف الناس ولائمة الذين يأمرون بالمعروف الصغير والكبير ويشددون النكير على من يتهاون فى أداء فرض من فروض الدين . وهنالك فى أغلب المساجد توجد هيئة متطوعة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

وتفقد الناس فى الصلوات ، ولا سيما صلاتا العشاء والصبح ، وعند هذه الهيئة جريدة فيها أسماء رجال الحى الذين يظن أن يصلوا فى مسجدهم يقيدون فيها أسماءهم بالاحصاء التام ، وعند ما ينتهون من الصلاة يقوم إنسان فيتلو أسماء رجال الحى الواحد بعد الواحد ، مثل ما يكون فى المدارس لتفقد التلاميذ . فاذا ما تأخر امرؤ واحد عن حضور الصلاة حسب ماعندهم فى الجريدة ذهبوا إلى منزله يسألون عن سبب تأخره عن الصلاة جماعة ، فإن كان مريضاً عادوه وواسوه ، وإن كان مسافراً دعوا له فى الذهاب والاياب ، وإن كان مقصراً نصحوه بأن لايتأخر مرة أخرى وإلا أغلظوا له فى الإنكار

وهذا العمل فى ظنى فريد فى بابه ، وهو غاية فى المحافظة على فروض الشريعة . وما نظن أناساً بلغت بهم المحافظة على أوامر الله هذا المبلغ

وكثيرون منهم يبادرون إلى المساجد مبكرين جداً قبل حلول وقت الصلاة بساعات ، وقد يصلى الواحد منهم أربعة فروض : الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، دون أن يغادر المسجد ، وهم يحرصون جد الحرص على الصف الأول ويتنافسون على الدنو من الإمام ، حتى إنهم ليلة الجمعة يعدون أماكنهم فى الصف الأول من أول الليل ، يطرح الواحد له علامة عصاً أو مصحفاً أو شيئاً آخر ويدعه عند النوم كذلك ، فاذا ماصلى الفجر ، وهم يصلون فى أول الوقت ، جلس فى مكانه استعداداً لصلاة الجمعة ولم ينتقل حتى يصلى صلاة الجمعة إلا

لحاجة لا بد منها من حاجات الانسان . وهم يفعلون ذلك تقرباً إلى الله وحرصاً على رضاه

والناس هنالك على مذهب السلف الصالح ، أعنى الصحابة والتابعين، فى العقائد والآراء والأعمال ، لا ينعمون بغير مذهب السلف الصالح عيناً ، ولا يعدلون عنه فى نظرية واحدة من النظريات . أريد أنهم يذهبون مذاهب الأئمة القدامى فى احترام نصوص الدين وتقديرها وإبعادها عن التفاسير المجافية لذوق اللغة وذوق اللغويين ، وعن المأثور عن السلف الصالح فى تفسيرها وتأويلها . لا يقبلون تأويلا من من تأويلات الباطنية والصوفية ولا غيرهم من علماء الكلام الذين سلطوا التأويلات البعيدة جداً على النصوص حتى ذهبت بقداسة القرآن والسنة من النفوس، نفوس المؤمنين بها ، وحتى جرأ فريق من علماء الكلام المصابين بداء التأويل أن يقول : إن القرآن والسنة لا يفيدان العلم ولا اليقين ولا يجوز الأخذ بهما فى العقائد ، لأن الكلام عندهم كله ظنى لاحتماله التفاسير الكثيرة . وهذا من أخطر ما للتأويل من جناية على الوحى . وعند هؤلاء أن الله لو لم ينزل كتاباً على الناس يذكر به ما يصح من العقائد والآراء لكان أرفق بالناس وأسعد لهم ، ولو لم ينزل لم يكن هنالك ضرر ، لان الحاكم عندهم على النصوص وعلى كل كلام هو العقل والرأى ، أما النصوص فلا فائدة فيها البتة . وهنا يتجلى لنا غور السلف حينما اشتدوا فى مؤاخذة أصحاب التأويل المجافى للمعهود من كلام العرب ومعروف الخطاب . فقد نظروا من

وراء الغيب بأذهانهم الصافية إلى ما سيحدثه الذهاب مع التأويل من الآراء الباطلة والاعتداء على شرف النصوص، فأنكروا التأويل بشدة ولم يرضوا منه شيئاً. وفى الحق أن من نظر نظرة الفيلسوف المتعمق الذى يزن الأشياء بنتائجها لم يجد بداً من إنكار التأويل والإنكار على منتحله. وآثار التأويل الوخيمة أكبر شاهد على بطلانه. وقد وجدنا بالاستقراء أن من اعتاد تأويل النصوص ذهبت قيمتها من نفسه فقسا قلبه فاستهتر بالدين والعبادة.

والناس هنالك فى الأحكام الشرعية على مذهب الإمام احمد بن حنبل، يفتى القضاة والمفتون من المذهب، ولكنهم لا يتعصبون للمذهب تعصباً أعمى كما يصنع كثير من الناس، يغلون فى التقليد وفى العلماء. بل هم إذا وجدوا مستنداً شرعياً من القرآن أو من السنة لم يصدفوا عنه البتة، بل يقضون به ويدعون فقه الحنابلة جانباً مقدمين عليه حكم الله وحكم رسوله. وتحقيق الأمر أنهم إذا لم يجدوا نصاً من كتاب الله وسنة نبيه ودار الأمر بين أن يأخذوا برأيهم ورأى الإمام احمد قدموا رأى الإمام احمد، وقد يقدمون رأى غيره من الأئمة، لأنهم يرون الأئمة أعلم بالله وأتقى لله منهم. والأمر الذى جعلهم يميلون إلى الإمام أحمد أكثر من ميلهم إلى غيره هو علمهم بأن الإمام أحمد أوفر الأئمة معرفة بعلوم الحديث وأكثرهم حفظاً لها. وهذه الطريقة أحسن الطرق وأكثرها عدلاً. لا يقدم المسلم على كلام الله وكلام رسوله كلاماً، فان لم يجد من ذلك شيئاً فى

الموضوع قدم فهم الأئمة الصالحين على فهم نفسه ورأيه الخاص .
ولا يكون كقوم مفرّطين ومفرِطين ، قوم يدعون كلام الله وكلام
رسوله جانباً لشيخ يقلدونه ، وقوم يعتدّون بأنفسهم جداً حتى لا يبالون
بالأئمة ولا بما يقولون بل يسخرون منهم . والقصد فى كل الأمور هو
أجمل الأمور وأزكاها عند الله

والناس هنالك يحبون العلماء ويحترمونهم ظاهراً وباطناً ،
لا يقدمون على العالم أحداً من الناس . وعندهم أن كلمة « شيخ » أو
ابن الشيخ من أشرف الكلمات معنى وأعذبها لفظاً ، وأحسب أنه
لا يهتز أحد لألقاب المجد والفخر اهتزاز ابن الشيخ إذا ماقيل له
يا ابن الشيخ ، ويشعر عند هذا النداء فى أعماق نفسه بسرور لا يشعر به
أحد من حائزى ألقاب المجد والعظمة . وهذا الاحترام والحب اللذان
يتمتع بها العلماء هنالك راجعان الى أمرين اثنين : أحد الأمرين حب
الناس هنالك للدين وعظمته فى النفوس . والأمر الثانى احترام
العلماء هنالك أنفسهم وزهدهم فى الدنيا واستقامتهم ونبذهم ما يخدش
حرمة العلم والعلماء . فالعالم هنالك إذا ماقال سمع ونفذ قوله وتقبلته
النفوس راضية مسرورة ظاهراً وباطناً . بل نستطيع أن نقول إن
الأمور تجرى فى تلك البلاد طبق ما يريد العلماء وما يقولون ، لأنهم
يتكلمون بلسان الشرع ويقضون بقضائه

والناس هنالك يمقتون كثرة الجدل والمراء فى الدين والأبحاث

ويتجافون عمن يرغبون فى ذلك وينتحلونه ، لأنهم يرون الجدل والمراء (ميكروب) النزاع ، والنزاع ميكروب الخلاف ، والخلاف ميكروب الفرقة والبغضاء . وهذه الأمور إذا اجتمعت لأمة قضت عليها قضاء مبرماً وقلمت أظافر ماديتها ومعنويتها . والمراء والجدل فى الغالب لاينصران حقاً ولا يحدثان سوى الإحن

والناس هنالك يؤمنون بالقضاء والقدر إيماناً لايتزعزع ، إيماناً له الأثر البارز المحمود فى حروبهم وسلمهم وغناهم وفقرهم وحالاتهم كلها خيراً كانت أو شراً ، وهكذا يكون الإيمان بالقضاء والقدر إذا كان إيمان عاقل . يقدمون فى الحروب بشجاعة فائقة ويلاقون الموت باسمين راضين ، لأنهم يعلمون أن الله إذا كان قد كتب لهم حياة فلن تفوتهم وإن وقفوا فى جفن الردى ، وإن كان قد كتب لهم موتاً فلن يفوتوه أو يفلتوا منه ولو كانوا محصنين فى بروج مشيدة ، فماذا يغنى الفرار وما يضر الأقدام . إذن ليقدم المرء فى المعامع وما قدر عليه أوله فلن ينقص أو يزيد ، بل وليكن مايكون ، فما علينا سوى الإقدام إلى مايدعو إليه العدل وما ينصر الحق على الباطل ، والقضاء والقدر بيد الله . وأما السلم فيقبلونها أيضاً راضين طائعين مؤمنين بأن الله هو الذى قضاها وقدرها ، ولو شاء لما كان سلم ولما انفك الناس متحاربين خائفين فى نزاع ونضال . إذن لنعبد الله وحده ولنحمده على قضائه الرضى وقدره الميسور ، ولنجبه إلى مايدعونا إليه من الحذر والحيطة ، فلا نأمن مكر الله وقدره إذا ما أضعنا الفرص

السانحة ، ولنأخذ حـذرنا من طوارق الحدثان ومفاجآت القضاء والأقدار ، فالسلم لاتدوم كما أن الحرب لاتدوم ، والخير والشر يتعاقبان في كفتى القضاء والقدر تعاقب الليل والنهار ، فلا يغر العاقل بهذا ولا بهذا

وأما الفقر فيصبرون عليه ويقبلونه بقلوب ملأى بالإيمان بأن ذلك قضاء الله وقدره فلا فرار منه ولا هروب عنه إلا إلى الرضا والتسليم ، والجزع لايفيد فى دفعه أو رفعه ، فلا مندوحة عن الرضوان وعن التعرض لتحويله . لهـذا لاتوجد بينهم جريمة الانتحار ، بل لايفكرون فيها .. وأما الغنى فلا يغترون به ولا بدوامه لأنهم يعرفون أن ذلك قضاء الله المحتوم ، وهو أيضاً يأخذه منهم بالقضاء إذا شاء . فليس إذن وجود الغنى دليلا على رضاء الله على الغنىّ ، وليس هو آتياً بحذق المرء وقوته وحده ، بل ذلك من الله وإليه بقضائه وقدره . فغبىّ إذن من يغره الغنى أو غيره من أسباب النجاح الظاهر ، وغبى ذلك الذى يسكره غناه اليوم ويطغيه ناسياً قضاء الله وقدره اللذين يقسّمان على الخلائق الأرزاق قسماً عادلة . إذن ليكن المسلم ملكا يسمو على المادة والماديات . ويسمو على الغنى والفقر ، لايحزنه فقر ولا يفرحه غنى ، ولا يكن كالطفل يظن أن مايقع تحت يديه ملكه الذى لايزول ولا ينزع

والناس هنالك قليلو التقاضى ، يقل جداً أن تذهب خصومة برجلين أو رجال إلى القضاء ودور القضاء ، ومن النادر جداً أو من

المفقود بتاتاً أن تلجأ امرأة إلى القاضى لتشكو زوجها أو تشكو تقصيره فى حقها أو تطلب منه نفقة أو نحو ذلك . ولهذا فان القاضى يجلس على منصة القضاء الساعات بل الأيام فلا يحضر لديه سوى المستفتين السائلين عن شؤون الدين التى يجهلونها . وأما الخصومات فلا تجد من ذلك شيئاً . وهذا أمر مشهود فى البلاد كلها . وهو يرجع إلى أسباب : يرجع إلى صرامة القضاء وسرعته الفائقة وفق الشرع الحنيف حتى لا يأمل الكاذب أو الخائن أو المزور أن يجد له منفذاً أو فرصة يستطيع بها الانفلات من العدالة ووضع الحق فى نصابه . وإذا ماعلم الكاذب أن كذبه مفضوح فمجازى عليه فلن يكذب أو يزور . ولا ريب أن التباطؤ فى إصدار الاحكام واللجوء إلى تأجيل الحكم يمكنان المزور من جمع الدلائل الكاذبة على أنه برىء صادق وأنه مظلوم ، ولامعنى للتأجيل فى الأكثر إلا إعطاء الباطل الفرصة ليدعى أنه حق لا باطل فيه . وهنا نستطيع أن ندعى أن أكثر المحامين ، شرعيين وأهليين ، ماهم إلا أداة الباطل والتزوير وإفلات المجرمين من سلطان العدالة

ويرجع أيضاً ما ذكرنا من رغبة الناس عن المحاكم إلى قناعتهم ورضاهم بما قسم الله لهم ، وإلى وفرة دين القوم وخوفهم الله رب العالمين . فكبير جداً على نفس آمنت بالله ويوم الجزاء الذى لا يفلت منه أحد أن تدعى ماليس لها ، ثم تحاول حشد الدلائل المزورة على صدق دعواها ،

ثم تحاول تضليل القاضى والقضاء . لجدير بمن يفعل ذلك ألا يكون آمن بالله وبيوم الدين والجزاء

والناس هنالك راضون بعيشهم وما هم فيه كل الرضا ، مغتبطون بما وهبهم الله ، بل قد يرون أنه ليس على وجه الأرض أسعد منهم ولا أطيب عيشاً وحالا من عيشهم وحالهم . وهم يرون كل ماصابهم من خير إنما سببه الله وجوده تفضلا ، وما أصابهم من شر وبلاء إنما هو من أنفسهم بسبب أعمال اجترموها لا يرضاها الله . ولهذا فإنهم يفزعون عند البلاء ، كالقحط والضراء ، إلى التوبة والاستغفار والتوسل إلى الله بالأعمال الصالحة والدعوات الفازعة إلى افتراع أجواز السماوات . وعند الخير يمعنون فى حمد الله وشكرانه استبقاء لنعمه ، ولا يرون رأى قوم غرهم بالله الغرور فأفسد عليهم دينهم ودنياهم ، يرون ما بهم من خير من أنفسهم وما بهم من شر من الله

والناس هنالك مغاوير فى الحروب ، يقدمون على الموت إقدام من لا يملك حياته . من أعظم العظائم عندهم الفرار حذر الموت ، ولعله لا نقيصة تعدل هذه النقيصة نقيصة الفرار عند طوائف منهم . وقد يرون كل ذنب يستطيع المرء غسله حاشا ذنب الفرار إذا التقى الجمعان . وكثيرون منهم ومن هؤلاء « الإخوان » يصورون هذا المعنى الجليل فى أذهانهم حين الهجوم : الجنة أمامكم ، والنار وراءكم . وهذا أبلغ من قول ذلك العربى العظيم : العدو أمامكم والبحر وراءكم . وبهذه المعانى الانسانية السامية تساموا على الأقران فى الحروب ، ونزلوا بالأبطال بشفرات

سيوفهم إلى حيث يشاؤون . فهم عند ما يقرع آذانهم نفير الحرب يضع كل إنسان ما بيده ثم يضع فيها ما يستطيعه من عدة الحرب ويؤم ميدان الصراع ذاهباً على سجيته فى نظام الحرب والتلهف إلى الأعداء وإلى ارتشاف دم كل عنيد جبار لا يرعى لله ولا للعدل ولا للعباد حقاً ولا قانونا

وبعض الجمهور هنالك ينفرون من الأجانب، وقد يسيئون الظن بهم . والسبب فى هذا النفور وهذا الظن ، أن الدولة العثمانية لما كانت تحارب نجداً وتحكمها كانت تبعث جيوشاً وعساكر جهالا لادين لهم ولا نظام ولا عدل ولا رحمة ولا عفاف ولا نظافة ، وكانت هذه العساكر ترى النجديين ضروب الخروج على الدين والخلق والأدب، فقامت عندهم فكرة هى أن الأجانب كلهم مثل رجال الدولة العثمانية دولة الخلافة لا يرعون فروض الدين كما يجب . وبقيت هذه الفكرة فى أذهان طوائف منهم حتى يومنا هذا

والناس هنالك يحرزون قوة معنوية فائقة ، ويؤملون فى معنويتهم، إذا ما اعتمدوا على الله ، أن تحطم أكبر قوة تريد منهم مالا يريدون ومالا يرتضيه العدل والنصفة . فهم لا يحسبون أنفسهم يوماً ما أقل من أن تنازل أعظم قوة ظالمة ، وتناوىء أكبر جيش يريد غزوهم او الاعتداء عليهم . بل إن كثيرين منهم يؤمنون إيماناً جازماً بأنه لا توجد قوة فى الأرض تستطيع كسرهم وغلبهم . ولهذه القوة المعنوية فضل كبير جداً فى احرازهم النصر فى الحروب التى خاضوا غمارها وصلوا نارها .

وما أقل أن يهزم جندى يخوض الحرب وكله إيمان بأنه الفائز وبأنه ساحق ما أمامه من أعوان الظلم والعدوان . وهذه القوة المعنوية ترتكز على ثقتهم بالله وإيمانهم به واتباعهم أوامره واعتقادهم أنهم يدافعون عن الدين والعدالة والنظام ، وينازلون الفوضى والجور والفساد . وعلى هذه المعانى السامية تقوم شجاعتهم وقوتهم المعنوية . وخليق بمن يدافع عن العدالة والنظام والمساواة بأن يمتلك القوة المعنوية التى لا تغالب ، وأن يكون المتفوق المنصور على من يغزو للسلب والطمع والمادة الجشعة المعبودة ، أو للدفاع عن الفساد والاستبداد الفاجر الجبان

وللناس هنالك فكرة فلسفية عميقة نحو الحياة الدنيا والأخرى دار الجزاء الأوفى . ينظرون إليهما نظرة من سما بنفسه عن نفسه وعن المادة وعن كل ما لا يكون له الخلود الأبدى والبقاء الذي لا يمسه زوال . يعتبرون الحياة الدنيا دهليزاً وممراً للأخرى . وبعبارة أخرى لا يرون الدنيا ولا الفلسفة فى وجودها إلا أنها مزرعة الأخرى ، كما يعبرون هم . أي يرون أن الدنيا لم تخلق ولا فائدة فى وجودها إلا ليعبد الله ويقام العدل وينتصر للمظلوم الضعيف من الظالم القوى . فما فى الدنيا مما خلقه الله ومما سيخلقه لا غرض منه إلا ليستعين به العباد على عبادة خالقهم وطاعته ، وعلى محاربة الفساد والظلم وفكرة استغلال ضعف الضعفاء لتسخيرهم وحملهم على الخسف وخطة الضيم . فما فى الدنيا شىء خلق لذاته أو أريد لذاته ، ولكن الأشياء كلها أدوات لإيجاد المعانى الانسانية الجليلة . ولهذا فانهم يسمون بأنفسهم عن الدنيا وعما فيها ،

لا يذلون أنفسهم لشىء من ذلك ولا يسخرونها فى خدمتها ، وهى ما خلقت إلا لتسخر فى خدمة المعانى الانسانية . لهذا لست سامعاً من أفواههم سوى كلمات الفلاسفة العميقة فى ضآلة الدنيا وقلة قيمتها فى جانب الحياة الأبدية التى لا هم فيها ولا ظلم ولا ضلال ولا فجور ولا نزاع ولا شىء من معانى الحيوانية الشرهة ، ولست سامعاً سوى الحث على الايمان وعلى الاستقامة لأجل الفوز فى رضا الله يوم الدين المحتوم ، وسوى التحذير من أعمال الظلم والعصيان والخروج على قانون الله الذى وضع فيه عدله وحكمته البالغة ليطهر بها النفوس الانسانية من معانى الحيوانية والأنانية ، ويوقظ فيها معانى الانسان السامية إلى أرفع مكان من مواضع الفضيلة والأدب والخلق

إنهم لن يصابوا بمصيبة من قتل أو موت أو ضيق أو بؤس أو فقدان محبوب إلا قابلوا تلك المصائب بكلمات فى التخريج والفلسفة ، فلسفة الحياة الدنيا ، تسمو على الرضا وعلى آلام الحياة الدنيا وآلام الإنسان كلها . ونستطيع أن نقول إن الناس هنالك كلهم فلاسفة وحكماء فى وضع الدنيا ووضع الماديات كلها . وهذا كله راجع إلى إيمان القوم بأن الحياة الدنيا ما هى إلا مزرعة الأخرى ، وأن الأخرى هى التى يجب أن يفنى فيها الإنسان ويبذل معانيه كلها فيما يقرب من الله ومن رضاه فيها ، وما الحياة الدنيا ، وما هى إلا عبارة عن أيام قليلة لا يدرى متى تنتهى ، وهى على كل حال منتهية ، أيام لا يدرى أين طرفها الأسفل ، مشوبة بكل معنى من معانى الألم والخوف والضلال ، مهدد الإنسان كل لحظة بنهبها منه بأضعف

سبب ؟ ! ماهى هذه الأيام فى جانب دار الخلود التى ليس فيها شىء من آلام الإنسان ، وليس فيها شىء من الضلال ولا الغرور ولا النزاع المحتدم لأجل لقيمات يضعها المرء فى جوفه لايعرف هل يسيغها أم لايسيغها ولعل حتفه فيها

والناس هنالك أيضاً عبارة عن جماعة نصبت لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ولتحارب الفساد والفجور والخروج على الآداب ، كل واحد منهم سلطة منفذة حاكمة فى طريق كل من تراوده نفسه على أن يبدو بشىء من المعاصى أو فاجر الأدب ، أو معوج الخلق . لايرى أحد منهم ، كبير أو صغير ، ظلماً أو عصياناً ، أو أدباً فاسداً إلا ثار به وأزاله بالقوة والقمع والقسر ، غير منتظر فى ذلك إذن قاض أو حاكم أو أحد من الناس ، غير منتظر إلا حكم الشرع الحنيف وإلا سامى الأخلاق العليا

لأجل هذا تضرب فى طول البلاد وعرضها ، فلا ترى شيئاً يندى له جبينك ، أو شيئاً يأباه الخلق الرضى أو الشرع الحنيف ، لاترى شيئاً من ذلك فى بلدة من تلك البلاد مهما كانت بعيدة عن يد الحكومة وعينها وسلطانها المرهوب

وإن أنس لا أنس حادثة من هذا النوع الجليل وقعت فى إحدى القرى هنالك . هذه الحادثة هى : أن رجلا جرؤ وسب والدته ، فشكت الوالدة ذلك الابن العاق إلى أحد رجال الحى ، فأمر هذا الرجل المشتكى إليه بإحضار جريد من النخل فأحضر ووضع أمام باب المسجد ، وأخبر

المصلين بذلك ، فلما صلوا وقضوا الصلاة وصلى معهم ذلك الإبن الذى سب والدته ، أمروا به فطرح أرضاً ونزل على بدنه جريد النخل من كل مكان من جسمه ، حتى أشفقت عليه أمه ، فوقعت عليه لتقيه الضرب .

هذه حادثة هى كالمثال لأخذ الناس هنالك المجرمين بالشدة والقمع

وهذه نظرة عامة ألقيناها على أعمال هؤلاء الناس مصدر هذه الدعوة أو هذه الثورة تطلع القارىء الكريم على مقدار تمكن الدين والفضيلة من أنفسهم . ولعل القارىء يرى فى ماسمع مثال المسلم الكامل أو المسلم الناقص ، على كل حال لعله يرى فيه مثال المسلم مهما تكن درجته ومهما يكن نصيبه وحظه من المسلم فى القرآن

منذ سنوات طاف سائح إمريكى فى بلاد أوروبا ، ثم طاف فى بلاد الشرق ، ومنها بلاد العرب ، ثم ألقى محاضرة بالقاهرة عن بعض مارأى فى البلاد التى طاف بها . جاء فى المحاضرة :

« لو خرج عيسى عليه السلام من جديد ، ثم أراد أن يعرف أتباعه ، لما وجد له أتباعاً لا فى الشرق ولا فى الغرب . ولو خرج موسى عليه السلام ، ثم أراد أن يعرف أتباعه ، لما عرف له أتباعاً فى الشرق ولا فى الغرب . ولو خرج محمد عليه السلام ، وأراد أن يعرف أتباعه ، لوجدهم فى قلب بلاد العرب ، فى نجد »

وثيقة دينية

كان الإمام عبد العزيز الأول ابن محمد سعود ، وهو الحلقة الثانية من سلسلة النسب السعودى ، يشتمل على دين جم وعلى أخلاق كأنما انتزعت من كبد الشمس ، وكان جاداً جداً فى نشر الدعوة السلفية وإبلاغها إلى الناس ، فكان يرسل إلى الأمراء والعظماء والعلماء رسائل يدعوهم فيها إلى دين الله الحق . وفيما يلى رسالة من رسائله التى دعا بها إلى الله ، أرسلها إلى أشراف تهامة اليمن . ننقلها من كتاب اسمه « نفح العود فى سيرة أيام الشريف حمود » ، وهذا الكتاب موجود فى مكتبة جلالة الملك عبد العزيز ، كما أخبرنى الأستاذ خير الدين الزركلى . وهذا نص الرسالة :

« بسم الله الرحمن . من عبدالعزيز بن سعود إلى من يراه من أهل المخلاف السليمانى ، خصوصاً الأشراف أولاد محمد بن احمد حمود وناصر ويحي وسائر إخوانهم وأولاد إخوانهم ، وكذلك الأشراف بنى النعيمى وسائر أشراف تهامة ، وفقنا الله وإياهم إلى سبيل الحق والهداية ، وجنبنا وإياهم طريق الشرك والغواية ، وأرشدنا وإياهم إلى اقتفاء آثار أهل العناية

أما بعد . فالموجب لهذه الرسالة أن الشريف احمد بن حسين قدم علينا فرأى مانحن عليه ، وتحقق صحة ذلك لديه ، وبعد ذلك التمس منا أن نكتب لكم مايزول به الاشتباه ، فتعرفوا دين الإسلام الذى لا يقبل من أحد سواه

« فاعلموا رحمكم الله تعالى أن الله أرسل محمداً ، صلى الله عليه وآله، على فترة من الرسل فهدى به إلى الدين الكامل والشرع التام . وأعظم ذلك وأكبره وزبدته إخلاص العبادة لله لاشريك له والنهى عن الشرك ، وذلك هو الذى خلق الله الخلق لأجله ودل الكتاب على فضله ، كما قال (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) وقال تعالى (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقال تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين)

« وإخلاص الدين هو صرف جميع أنواع العبادة لله تعالى وحده لاشريك له ، وذلك بألا يدعى إلا الله ، ولا يستغاث إلا بالله ، ولا يذبح إلا لله ، ولايخشى ولا يرجى سواه ، ولا يرهب ولا يرغب إلا فيما لديه ، ولا يتوكل في جميع الأمور إلا عليه ، وأن كل ذلك لله تعالى لا يصلح شىء منه لملك مقرب ولا لنبى مرسل ولا شىء غيرهما ، وهذا هو بعينه توحيد الألوهية الذى أسس الإسلام عليه وانفرد به المسلم عن الكافر وهو معنى شهادة أن لا إله إلا الله . فلما منّ الله علينا بمعرفة ذلك وعلمنا أنه دين الإسلام اتبعناه ودعونا الناس إليه ، وإلا فنحن قبل ذلك على ماعليه غالب الناس من الشرك بالله من عبادة أهل القبور والاستغاثة بهم والتقرب بالذبح لهم وطلب الحاجات منهم ، مع ماينضم إلى ذلك من فعل الفواحش والمنكرات، وارتكاب الأمور المحرمات، وترك الصلاة، وترك شعائر الإسلام ، حتى أظهر الله تعالى الحق بعد خفائه ، وأحيا أثره بعد عفائه ، على يد شيخ الإسلام ، فهدى الله به ماشاء من الأنام ،

وهو الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، أحسن الله تعالى إليه بآخرته المآب، فأبرز لنا ماهو الحق والصواب من كتاب الله تعالى المجيد ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، فبين لنا أن الذى نحن عليه وهو دين غالب الناس اليوم من الاعتقاد فى الصالحين وغيرهم ودعوتهم والتقرب بالذبح لهم والنذر والاستغاثة بهم فى الشدائد ، وطلب الحاجات منهم ، هو الشرك الأكبر الذى نهى الله تعالى عنه وتهدد بالوعيد الشديد عليه ، وأخبر فى كتابه أنه لا يغفره إلا بالتوبة منه، قال تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) وقال تعالى (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار) ، وقال تعالى (والذين تدعون من دون الله ما يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير)

والآيات في أن دعوة غير الله تعالى شرك أكبر كثيرة واضحة شهيرة . فحين كشف الله لنا الأمر وعرفنا ما نحن عليه من الشرك والكفر بالنصوص القاطعة والأدلة الساطعة من كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الأئمة الأعلام الذين اجتمعت الأمة على درايتهم ، عرفنا أن ما كنا عليه وما كنا ندين به أولا أنه الشرك الأكبر ، الذى نهى الله عنه وحذر ، وأن الله إنما أمرنا أن ندعوه وحده ، وذلك كما قال تعالى (ومن أضل ممن يدعو من دون الله

من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين)

« إذا عرفتم هذا فاعلموا رحمكم الله تعالى أن الذى ندين به هو إخلاص العبادة لله وحده ونفى الشرك وإقام الصلاة فى الجماعة وغير ذلك من أركان الاسلام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ولا يخفى على ذوى البصائر والأفهام ، والمتدبرين من الأنام ، أن هذا هو الدين الذى جاءنا به الرسول قال جل جلاله (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه) وقال تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا)

« فمن قبل هذا ولزم العمل به ، فهو حظه فى الدنيا والآخرة ، ونعم الحظ دين الإسلام ، ومن أتى غيره واستكبر فلم يقبل هدى الله لما تبين نوره وسناه عبنا ذلك عليه وقاتلناه قال تعالى (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) وقصدنا بهذه النصيحة إليكم القيام بواجب الدعوة ، قال تعالى (قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين) وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما » انتهت الرسالة

ولهذه الرسالة عندنا ميزة خاصة من جهات كثيرة لأجلها آثرنا نقلها هنا

التجديد فى الاسلام ورأى الشيخ المراغى

يدعى قوم لم يرسخوا فى الايمان ولا فى العلم أن شرع العقوبات البدنية فى الشريعة الاسلامية شرع لايتفق والرحمة بالانسانية ، بل هو شرع قاس مسرف فى القسوة ، لايصلح الأخذ به فى كل زمان ومكان ، كما لا يصلح للأمة الراقية المتحضرة أن تتخذه شرعاً لها تعاقب به بنيها إذا ماوقعوا فى المخالفات التى هى لازمة من لازمات الجبلة الإنسانية ، فترجم ذلك الإنسان الذى يوقعه ميله الجنسى فى ذلك الذنب الجنسى ، وتقطع يمين ذلك الإنسان الذى تغريه حاجته ويغريه حب المال بالسرقة والاجتراء على أخذ أموال الناس ، وأمثال ذلك من العقوبات الهائلة المذكورة فى القرآن وفى السنة

والمعتدلون من هؤلاء يزعمون أن هذه العقوبات كانت صالحة لأن يعمل بها فى الزمن الأول الذى نزلت فيه يوم أن كانت النفوس حيوانية صرفة لايردعها الردع المطلوب سوى أقسى العقوبات وأفظعها وأبعدها عن معانى الرحمة والرأفة والشفقة . أما بعد ذلك العصر ، وأما فى هذا العصر الحاضر الذى ارتقت فيه الإنسانية وقاربت أن تكون ملائكة أطهاراً ، وفهمت معنى الجريمة والخطيئة وما فيهما من قبح يردع العاقل وحده عنهما لنفسهما لا لشىء آخر : أما فى هذا الزمان فلا تصلح معاقبة الناس بهذه العقوبات الصارمة . إنما هى لقوم همج ذهبوا

هـذه أقوال وآراء يتفوه بها كثيرون من رجالات شهروا بالدفاع عن الإسلام والذب عنه ذباً يجعل صدور هذه الأقوال منهم مناقضاً لمواقفهم من الإسلام والدفاع عنه

وقد علمت من صديق صادق أن أحد هؤلاء ذهب لأداء فريضة الحج فى الأعوام الأخيرة ، فلما رجع من هنالك سأله عما شاهده فى ذلك القطر من مظاهر النهوض والعمران ، فكان مما قال أنه لا يرضى عن الحالة هنالك ، وذلك أن عقوبات شديدة ، كقطع يد السارق ورجم الزانى، توقع فى تلك البلاد ، وهذا غاية القسوة . فقال له الحاضرون إن هذا هو شرع الإسلام الذى لاخلاف فيه بين أهل الإسلام فى عصر من عصوره ، وإن هذه المؤاخذة التى تعدها على حكومة تلك البلاد هى من الحسنات التى نعدها نحن وسائر الناس لها . فما كان من ذلك القائل المجدد إلا التراجع والهروب

وحدثنى صديق آخر أثق بخبره ، وهو يعرف مايقول : أنه ذهب إلى أحد هؤلاء المجددين أو المتجردين كما يسميهم الأستاذ محب الدين ، فسأله عن بعض الشؤون الإسلامية التى هى من خصائص ذلك المجدد ، ثم سأله عما يرجوه لحكومة الحجاز ، فأجاب بما لم يرضه وكان فى جوابه هجوم . وكان الذنب كله لتلك الحكومة عند هذا المجدد أنها تنفذ العقوبات الإسلامية وهذا قسوة لاتطاق ، وذكر فى كلامه أن هذه العقوبات كانت لأزمان همجية ولت

هذا باب من أبواب المروق من الدين يحاول كثيرون اليوم فتحه

على مصراعيه ، بل تحطيمه بلا حيطة ولا تحفظ . وكثير من هؤلاء يجمجمون بهذا الإلحاد جمجمة ويلوحون إليه تلويحاً . وعن قريب ، لا قدر الله ، يصرحون ويظهرون ، بل ويكتبون ذلك فى صحف منشرة مقروءة ، إن لم يقم من يقف دون هذا البلاء المنهمر من ذوى النفوذ المعنوى الشجاع . والله يحفظ دينه من عبث العابثين وكيد الكائدين

وفى أثناء كتابة هذا الفصل أطلعنى بعض الإخوان على كلام فى جريدة الأهرام عدد ١٨٣٩٦ بتاريخ ٢٨ فبراير سنة ١٩٣٦ قاله الأستاذ المراغى شيخ الجامع الأزهر لوفد الشبان العراقيين . أطلعنى ذلك الصديق على ذلك الكلام لأنه رأى فيه ما لم يطمئن إليه قلبه أو ما أشكل عليه أمره

ولقد وجدت فى كلام الأستاذ المراغى المذكور ما يدعو إلى الريب والقلق ، وما يستحق أن ينظر فيه بعين العناية والاهتمام ، فقد جاءت فيه فقرات تخيف وتجعل قارئها يقف أمامها وقوف المرتاب الحائر ، ثم وقوف الآسف العاض على بنان الحسرة . جاءت فيه فقرات كدت لا أصدق أنها للشيخ المراغى حوارى الشيخ محمد عبده ، ورجل الاصلاح الذى اتفقت كلمة الصحف العربيـة فى مصر بأنه هو رجل الاسلام فى هذا البلد فى هذا العصر . فقرات خشيت أنها تعنى ما يعنى أمثال ذينك المسلمين المجددين اللذين أسمعناك رأيهما فى العقوبات الاسلامية والحدود الشرعية . وهذا شىء يأسف له والله كل مسلم

وإنى أعرض ما أنكرته من كلام الأستاذ الأكبر على حضرات قراء هذا الكتاب ليكونوا على علم بما يراد بدينهم فلا ينخدعوا فى أعز شىء لديهم ، أعنى الدين

قال الأستاذ المراغى :

« وإن من ينظر فى كتب الشريعة الأصيلة بعين البصر والحذق يجد أنه من غير المعقول أن تضع قانوناً أو كتاباً أو مبدأ فى القرن الثانى من الهجرة ثم تجىء بعد ذلك فتطبق هذا القانون أو الكتاب أو المبدأ فى مصر أو فى العراق فى سنة ١٣٥٤ هـ »

عفا الله عنا وعن الأستاذ المراغى وغفر له ما بدر منه ، ورزقنا وإياه التؤدة فى إصدار الأحكام والأقوال فى الدين وشرع الله

إنه لمن المعقول جداً أن يكون ذلك القانون أو الكتاب أو المبدأ صالحاً فى القرن الثانى الهجرى مطبقاً عليه فى الحجاز وغير الحجاز ، ثم يكون صالحاً أيضاً فى القرن الرابع عشر من الهجرة مطبقاً عليه فى الحجاز وغير الحجاز ـ إذا ما كان ذلك الكتاب أو القانون أو المبدأ موافقاً لحكم الله ولعدله وللمنطق . وغير ذلك هو الذى من غير المعقول وغير المقبول . إن الشأن كله فى موافقة القانون والكتاب والمبدأ لشرع الله وللعدالة عند العقلاء كافة . فالموافق مقبول ومعقول ، والمخالف لامقبول ولا معقول . ولا شأن للزمان ولا المكان فى تغيير الأحكام الشرعية الإسلامية البتة . فالقانون والكتاب والمبدأ : هذه الأمور ، إذا كانت لا تقابل شرع الله كانت غير مقبولة وإن

وضعت فى القرن العشرين أو ماقبله أو ما بعده ، وهى مقبولة جداً إذا ما كانت موافقة شرع الله وعدله ورحمته ، وإن كانت موضوعة فى القرن الأول الهجرى أو ما قبله أو ما بعده

والزعم أن الأحكام الشرعية تبدل حسب تبدل الزمان ، زعم لا يقبله المسلمون البتة ، بل المسلمون كافة يعلمون أن حكم الله المعين صالح لكل زمان ومكان ، بل كل حكم شرعى كان يعمل به فى القرن الثانى من الهجرة صالح لأن يعمل به فى كل زمان ومكان . وكيف يصح الادعاء أن القانون أو الكتاب أو المبدأ لا يصلح فى هذا القرن إذا كان موضوعاً فى القرن الثانى من الهجرة ، ونحن نعلم أن القوانين الوضعية الموجودة اليوم فى البلاد المتحضرة هى قوانين تكاد تكون قديمة ، وتكاد تكون منتسخة من القانون الرومانى ؟ ! بل وكثير من أحكام القوانين الأوروبية الحديثة مأخوذ أخذاً من بعض المذاهب الأربعة الإسلامية ، ومنتزع انتزاعاً كما يعلم ذلك أهل الخبرة ؟ ؟ ؟ ولا ندرى كيف يصلح العمل بقانون نابليون فى هذا القرن ولا يصح بكتاب « الأم » للإمام الشافعى أو كتاب « الموطأ » للامام المالك ؟ ! إن قول الأستاذ هذا يدل على أنه من غير المعقول العمل اليوم بهذين الكتابين أو المذهبين ، وهذا عجيب جداً . ثم لا ندرى ما الفرق بين ما يوضع فى القرن الثانى الهجرى وما يوضع فى القرن الأول ، إذا ما كان المدار على تقدم الزمان وتأخره لا على ما فى القانون من قوة وضعف وحق وباطل ؟ ؟ ! أو ليس الموضوع فى القرن الأول الهجرى أولى من

الموضوع فى القرن الثاني بما قاله الأستاذ المراغى ، إذا كان الأمر كذلك . أى إذا ما كان لقدم الزمان وتأخره أثر فى صحة القانون أو بطلانه . هذا مثلا مذهب الامام الشافعى الموضوع فى كتاب الأم ، وهو موضوع فى القرن الثانى الهجرى وهو مستنبط من كتاب الله ومن سنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، فهل يقول الأستاذ المراغى إنه من غير المعقول العمل به فى القرن الرابع عشر فى مصر أو فى العراق أو الشام أو بلاد أوروبا أيضاً ؟ ونحن واثقون أن الأوربيين أنفسهم لو عملوا به لكان أهدى لهم وأحكم من قوانينهم . ولا نحسب المراغى ينازع فى ذلك . وهل يقال إن الأحكام او المبادىء التى تضمنها ذلك المذهب الموضوع فى ذلك الكتاب من غير المعقول العمل بها فى هذا العصر فى مصر أو العراق . وهل هذا القول إذا ما قيل يكون من المعقول؟ وهل تلك الحدود الشرعية الموجودة فى الكتاب من غير المعقول تطبيقها على أهل هذا العصر ؟

ثم يقول الأستاذ المراغى :

« وإن من ينظر إلى أقوال الأئمة من مذهب أبى حنيفة وما وقع بينه وبين أصحابه محمد وزفر وأبى يوسف وبينهم هم ، يجد أن التجديد فى الأحكام الشرعية ميسور لنا وفى أهون مستطاعنا ، ويجد أن بطلان الدوام لأحكام معينة وبقاءها حيث يُبقى الدهر من الأمور البديهة »

أما نحن فنقول إن الميسور لنا هو أن نجدد أحكام الشريعة المندثرة المضيعة بالعمل بها وتطبيقها على أعمال المكلفين ، ومن الميسور أيضاً تفهمها

واستخراج الأحكام منها ، وألا نتقيد بكل ما يقال من الآراء فيها . أما التجديد فى الأحكام نفسها فغير ميسور ولا مستطاع لنا . فان التجديد فيها معناه الإتيان بأحكام جديدة أخرى لم تكن موجودة فى الزمان الأول . وإذا ما فعلنا ذلك كنا مخترعين مبتدعين أحكاماً ليست هى الأحكام التى أرادها الشارع . والأحكام التى تبتدع فى الاسلام ليست من الإسلام كما يعلم الأستاذ أن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة ، وكما يسعى جداً فى مناهضة الابتداع والقضاء المبرم عليه

فمثلا حكم الاسلام فى السارق أن تقطع يده ، فاذا جدد مجدد فى هذا الحكم وادعى أن السارق يسجن أو يعاقب عقوبات أخرى غير القطع كان هذا التجديد مروقاً من الاسلام وخروجاً عليه لدى جميع المسلمين . ولكن الميسور لنا والواجب علينا تجديد هذا الحكم نفسه بأن نسعى للعمل به بعد أن تركه الناس وعملوا بغيره . وهذا هو الذى يدل عليه كلام أبى حنيفة وأصحابه وسائر العلماء . وكل تجديد فى الاسلام على غير هذه الصورة هو خروج من الاسلام ولا ريب . وبعبارة أخرى نقول : هذا المجدد فيه إما أن يكون هو الحكم الذى أراده الشارع من خطابه أو غيره . فإن كان هو إياه ، لم يكن فيه تجديد مطلقاً ، وإن كان غير ما أراده الشارع كان تجديداً حقاً ولكنه يكون حينئذ مردوداً لأنه ليس من الاسلام أصلا

والتجديد على حسب ما نقول كل العلماء يقولون به . فما معنى اختصاص أبى حنيفة وأصحابه به؟! وهل أحد ينازع فى هذا التجديد أو

يأباه ؟ ! إذن التجديد الذى عناه الأستاذ الأكبر هو التجديد الذى لا يقبل ، وهو الشق الآخر

وأما قوله: « ويجد أن بطلان الدوام الخ » فقول لا يمكن أن يصح لا عقلا و لا دينا ولا منطقاً . فان أحكام الشريعة الاسلامية هى أحكام معينة معروفة ، وهى واجب العمل بها على المسلمين حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، لا يجوز إبطالها لاو نسخها و لا الزيادة فيها ولا النقصان . وهذا من الأمور البدهية عند المسلمين كافة ليس من مواضع الخلاف والنزاع . على أن هذا القول من الأستاذ المراغى غريب من حيث هو ليس صحيحاً لا عقلا ولا ديناً ، فان الكذب والزنا والقتل أمور حكمها التحريم والشناعة فى كل زمان ومكان . ولا يمكن بطلان هذا الحكم البتة ، فدوامه لهذه الامور من الاشياء اللازمة . فكيف يصح قول الأستاذ المراغى هذا ؟ ! . لا ريب أنه غلطة عظيمة

ثم يقول المراغى : « ولقد وضع علماء الحنفية قاعدة تشريعية هى أن العرف العام يعمل به والعرف الخاص أيضاً . والعرف العام عندهم يخصص النصوص والقياس ويترك به ظاهر الرواية وكذلك يترك ظاهر الرواية بالعرف الخاص »

ولا نعرف كيف يخفى على الأستاذ أن الله يرسل الرسل وينزل الكتب لأجل محاربة العرف الفاسد . وهل كان الضلال فى كل زمان إلا عرفا ؟ ! وهل كان الفجور فى كل وقت من الأوقات إلا عرفاً خاصاً أو عاماً ؟ ! إن العرف لا يمكن أن يكون صحيحاً مقبولا دائماً ، فكيف يمكن

أن يكون قوياً تترك له النصوص والروايات ويخصص القرآن والسنة ؟!
وإذا كان العرف الخاص أو العام حجة شرعية فكيف نستطيع أن نهى
ضالا عن ضلاله أو فاجراً عن فجوره ؟! وهل الخرافات والمبتدعات التى
لا يرضاها الأستاذ المراغى إلا عرف لأصحابها ؟! إن دعاء الأموات
والاستعانة بهم عرف اصطلح الناس عليه . فهل يقال إن هذا العرف الفاسد
يخصص النصوص القاضية بألا يدعى إلا الله وألا يستعان إلا به ؟! وهل
سائر البدع الأثيمة الفاشية ما بين المسلمين إلا عرف للناس عام أو خاص؟!
فهل ذلك من الدين ؟! وهل يخصص الروايات القائلة بأن جميع البدع
ضلالات ؟! وهل فجور النساء اليوم وخلاعتهن الفاجرة وبروزهن فى
كل مكان هذا البروز الفظيع المنكر إلا عرف فهل ذلك من الدين ؟!
لاجرم أن القول بهذه القاعدة ، قاعدة العرف الخاص والعام وتخصيص
النصوص بها ، قول لا يقوم معه دين ولا عقل ولا منطق أيضاً . ولو صح
هذا القول لبطلت الكتب كلها من دينية وخلقية واجتماعية ، ولا كتفى
الناس بعرفهم الخاص أو العام . وهل كانت كتب الأخلاق والتربية
والأدب إلا لمحاربة العرف خاصاً وعاماً ؟! ليس من ريب أن القول
بالعرف قول بالفوضى والهمجية التى لا حد لها . إن القانون لمعرفة صحة
الحكم وبطلانه هو البرهان لا العرف ، وهذا لا خلاف فيه بين العقلاء .
فلا ريب أن الأستاذ الأكبر لم يتدبر جيداً هذه العبارات التى انفلتت
منه ، ولا ريب أنها عبارات يجب الرجوع عنها والاعتراف بجنوحها عن
سبيل الصواب والوضوح

بعد هذا كله نرجع ونقول : إن أحكام الشريعة ، من عقوبات وغيرها ، التى كانت قائمة فى القرن الثانى الهجرى صالحة لأن يعمل بها فى كل زمان ومكان ، وإنه لا أضمن منها لمصالح العباد وحمل النفوس الملتوية على الاستقامة واجتناب الرذائل ، وإن البشر لا يمكن أن يعيشوا بسلام وأمان من العدوان والفوضى إلا إذا كان سيف الشرع مسلولا فوق رؤوسهم ، وكان قانون السماء الذى طهر ذلك العصر الجاهلى الأول من أدوائه وحماقاته وحسم من تلك البلاد العنيدة مادة الجور والشر والفساد الذى لا يستطيع شىء السلامة منه - قائماً محكما

إن الإنسان هو الإنسان فى كل مكان وزمان ، فإذا لم يدع القسوة فى الزمان الأول إلا بالقسوة ، فإنه فى هذا الزمن أيضاً لن يدع القسوة إلا بالقسوة . إنه لا شىء يقدر على ردع الناس عن الاعتداء على النـاس إلا أن يحكموا شرع الله وعقوباته التى يقول الجاهلون إنها قاسية شديدة . لتكن قاسية ولتكن شديدة ، فماذا يكون ؟ ! والطبيب الرحيم القلب الرقيق الإحسـاس يقطع عضو ابنه وأحب الناس إليه وأقربهم إلى فؤاده ورحمته . والقسوة أحياناً رفق وعطف وشفقة . والرحمة بلا قسوة ضعف بحت . ولن يستقيم الناس بالضعف

إن البرهان الواقعى الذى لا يقاوم على أن الناس لا يصلحون إلا بالشريعة وعقوبات الشريعة ما يشاهد اليوم فى جزيرة العرب ، فى المملكة السعودية المحكومة بالشريعة من أمن وأمان واستقرار فى كل

شيء من مظاهر حياتها، ثم مايشاهد فى سائر البلاد المتحضرة المحكومة بالقوانين البشرية من قلق واضطراب واعتداء

إن الإنسان فى سائر بلاد العالم لايأمن على نفسه ولا على ماله ولا على شيء مما يحافظ عليه. وإن الناس فى بلاد أمريكا وغيرها، وفى بلاد مصر وغيرها، يسرقون فى وضح النهار وعلى أعين الناس وأعين رجال الحكومة نفسها، وإن الأعراض تذبح علناً، وإن الأموال تنهب. كل ذلك معروف معلوم، والقوانين البشرية قائمة، والسجون مفتحة أبوابها، والحراس مرصدون فى كل مكان، والجواسيس مبثوثون فى كل مرصد، والعلوم منتشرة، والثقافات قائمة سوقها: كل ذلك وأكثر منه لم يستطع المحافظة على أرواح الناس وأعراضهم. ولكن المملكة السعودية استطاعت المحافظة على ذلك كله أبرع محافظة بشيء يسير لم يكلفها جنداً ولا حرساً ولا سجوناً. هو أن حكمت الناس بالشرع فقط. أقامت حدوداً معدودة فتناذر الناس وأبصر كل امرىء طريقه فى تلك البلاد والشعاب التى قدت صخورها من قلق وجور وتمرد، وصارت تلك المملكة المثل الأعلى لعيش الهدوء والاستقرار والنظام. أليس فى هذا دليل مادى حسى على أن الناس لن يعيشوا بسلام إلا إذا أخذوا بحكم الاسلام؟

لقد عرف الناس كيف كانت حالة البلاد قبل أن تحكم بهذا القانون الذى يتهمه الجاهلون بالقسوة: كان الحجيج ينهب من فجاج مكة المكرمة وسائر مدن الحجاز، وكان المسافر لابد له من خفارة

الأعراب ولابد له من أن يدفع لهم الجعل ليسلم بنفسه، ولكنه مع ذلك لايسلم ولا ينجو، وكان الحاج يكتب وصيته عند إزماعه السفر إلى الحجاز لعلمه أنه رام بنفسه فى أحضان الموت والتهلكة، وكان الحجاج لايسيرون إلا مسلحين بأكمل الأسلحة، وكانت الدولة التركية عاجزة عن اقرار الأمن هنالك، عاجزة عن دفع خطر الأعراب عن رعيتها. ولكن عقوبات معدودة من هذه الحدود التى لا يرضاها المجددون استطاعت القضاء على كل القلاقل المزعجة، واستطاعت إقرار الأمن بصورة ما أظن الناس كانوا يحلمون أن تكون فى الحجاز فى عصر من العصور

إن هذه البلاد التى تشكو اليوم قلق حبل الأمن وبغى المجرمين واللصوص المغامرين ليكفيها لإزالة قلقها وما تشكوه أن يقام فيها بضع عقوبات من عقوبات الإسلام وحدوده، فيزول مابها وتظفر بالأمن والراحة حقاً، وإنها لن تظفر بذلك بغير هذا

إن السجن لايمكن أن يكون يوماً رادعاً النفوس عن الشر والاجرام. وكفى المشاهد دليلا صارخا. وما أكثر من يرغبون فى عيش السجون ممن ضاقت بهم سبل العيش وممن ذاقوا فوضى السجون. وكم سمعنا من يهدد الناس بالقتل قائلا: لأقتلنك ولأقبلن فى دمك سجناً مؤبداً. لأن ذلك عنده امر يهون وقد يستعذب.

إن من يستعظم هذه العقوبات على أهل الفساد الذين لايدعون الناس المسالمين يعيشون بسلام واستقرار وأمان على أرواحهم

وأموالهم لغاش للإنسانية بعيد عن العدل والشفقة التى يدعيها

وأما الزعم أن النفوس الانسانية ارتقت فزعم كاذب، والواقع اكبر دليل على كذبه، بل الانسانية تتدلى بطفرة من الجهة الخلقية تدلياً لا تمكن المماراة فيه ولا الخلاف فى بعد قراره. وما يظن أنه أتى على الناس عصر فسقت فيه النفوس وتمردت واستخصبت مرتع الفجور والخروج على شرع الله ونظامه كهذا العصر.

والرقى المزعوم هو رقى صناعى صرف لاحظ للأخلاق ولا للكمال فيه. والرقى الصناعى إن لم يصاحبه الرقى الخلقى عاد هبوطاً ونكبة على الانسانية وعلى الأخلاق وعلى الصناعة أيضاً وعلى كل شىء. وقائل غير هذا غاش أو جاهل

وما ارتقت الانسانية فى عصر من عصورها ارتقاءها فى عصر الاسلام الأول يوم أن كانت مقاليد العالم فى أيدى أولئك الصحابة والخلفاء الذين كانوا يوقعون هذه العقوبات الصارمة بمن اعتدى على حرم الأخلاق أو أساء إلى المعانى الانسانية أو امتهن الشرف الرفيع. وهل علمت أو علم الناس نفوساً أرقى وأطهر من نفوس كانت الواحدة منها إذا ما خدعها هواها وما فى جبلتها من ضعف جنسى فاقترفت بعض الاثم ندمت أقسى الندم، وآذاها ضميرها أذى لم تجد ما يهونه غير أن تقدم حياتها وتبذلها فى سبيل متابها: فتتقدم إلى رسول الله قائلة: يارسول الله اقترفت ذنبا فطهرني وأقم على حد الله. وهى تعلم أنه لن يطهرها سوى الموت الناجز. فتموت راضية إلا على الذنب الذى بدر منها.

فهل علمت أو علم الناس نفوساً أطهر أو أرفع من هذه النفوس ؟ ! لن يستطيع الجاهلون أو المخادعون أن يذكروا فى هذا المقام نفوس أهل باريس أو لندره أو برلين أو جنيف أو مجلس عصبة الأمم أو عصابة الاستعمار .

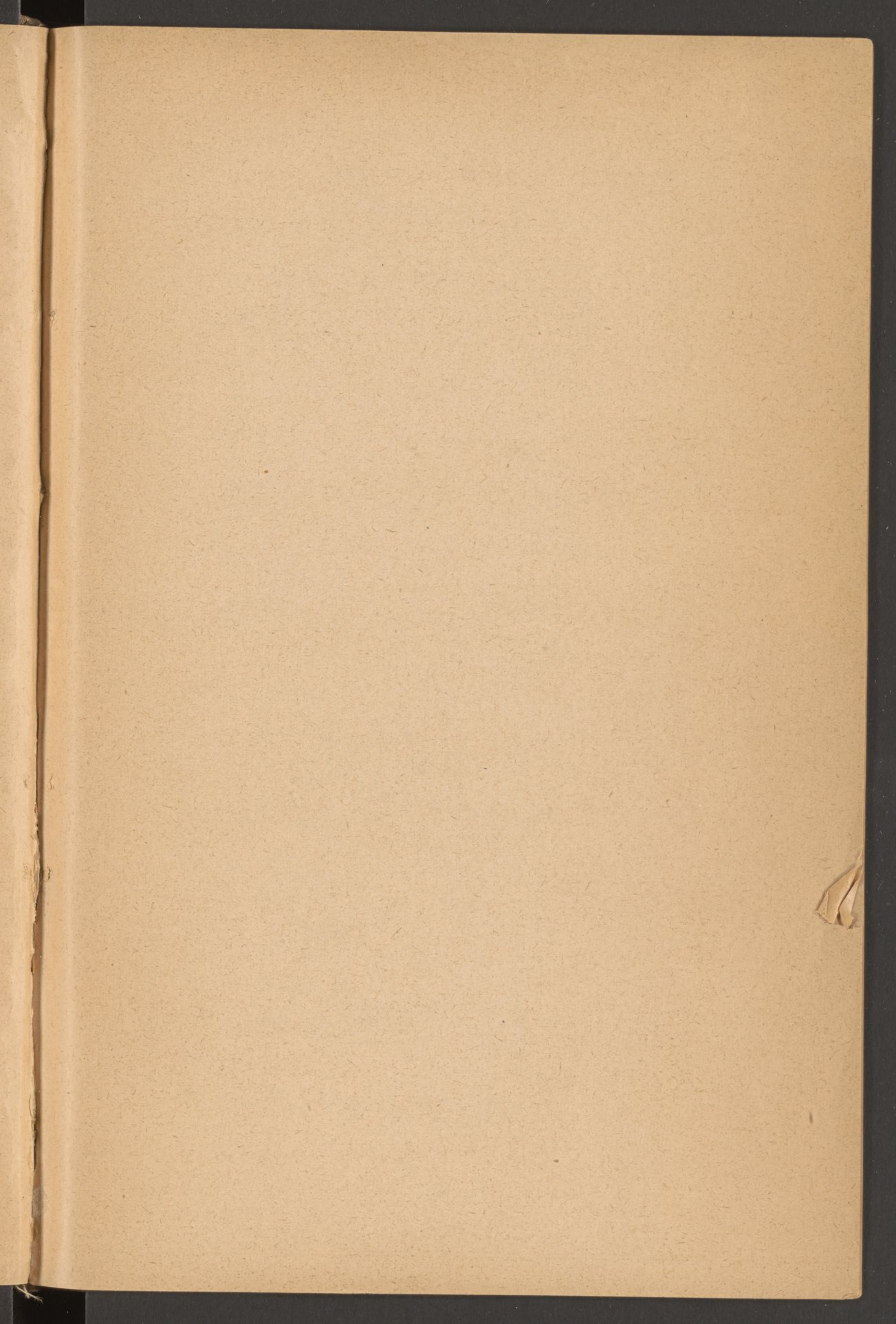
والانسانية ، ارتقت أو هبطت نزلت أو صعدت ، لن تحكم بحكم أفضل من حكم الله وحكم رسوله ، ولن يسوسها سياسة تكفل مصالح دنياها وأخراها مثل الشرع السماوى . وأى شرع هو خير من شرع الله الذى نزل به جبريل سيد أهل السماء على محمد سيد أهل الأرض لدى من يؤمن بالله وملائكته ورسله ؟ !

وليعلم هؤلاء أن الناس لن يؤمنوا بالدين إيماناً صحيحاً مثمراً الاستقامة والورع إلا إذا تركت نصوصه بعيدة عن التأويلات الهوجاء العليلة ، وإلا إذا ما أخذ كما جاء سليما غضاً بعيدا من الابتداع والاختراع . والاستقراء على ما نقول أكبر دليل وشهيد

عبد الله على القصيمى



الفهرس



كتب المؤلف

البروق النجدية

فى التوحيد . فى التوسل والوسيلة . فى البدع الملصقة بالدين . الآيات . الأحاديث . الآثار الموجودة فى هذا الموضوع

شيوخ الأزهر

الدلائل من المعقولات والمنقولات على أن الدين دين كامل لا يتحمل الزيادة ولا البدعة ، ولا يتحمل التحوير ولا التغيير

الفصل الحاسم بين الوهابيين ومخالفيهم

يدرس المواضيع المختلف فيها قديماً وحديثاً بين السلف والخلف ، أو بين الوهابيين والمبتدعين

مشكلات الأحاديث النبوية

يشتمل على الأحاديث النبوية التى استشكلتها العلوم المادية من طبية وجغرافية وفلكية وعقليه وحسية . فيه بيان هذه الأحاديث بياناً عصرياً

نقد كتاب حياة محمد

كل من يقتنون كتاب « حياة محمد » للدكتور هيكل لامندوحة لهم عن أن يعرفوا ما فى هذا الكتاب من الأغلاط العلميه والدينيه . وقد وقع للدكتور من هذا النوع قسم كبير يجب على قارىء كتابه أن يتنبه له . وكل الذين كتبوا عن هذا الكتاب كتبوا عنه من جهة المديح وقد أهملوا ناحية الماخذ . . وفى هذا الكتاب إحصاء المآخذ الدينية والعلمية الواقعة فى هذا الكتاب

